

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY

12 AUG 1972

Tel. 260458

تصحیح

زجو حضرات القراء تصحیح نسخهم علی ما یأنی:

ص	س	خطأ	صواب
۳۸	۴	وقا الذین	وقال الذین
۶۲	۱۴	القحطانیة التي تمت	القحطانیة التي لامت
۹۴	۱۱	وبعده الى مكة	وبعده الى المدينة
۱۰۲	۲۱	عصبة	عصبیة
۱۲۰	۵	لتعارفوا	لتعارفوا
۱۲۰	۲۴	بفضل	بفضل
۱۴۴	۱۹	قدر سموخ	قدر سموخ

نفاذ كتاب الشعر الجاهل

892.7109
Ha 3924 f. wA

هو كتاب تلخص فيه المؤلف فصول كتاب الشعر الجاهلي ونقد منها
ما يتعلق بعلم التاريخ والاجتماع والأدب

تأليف

محمد فرزدق بن حازم

(الطبعة الأولى)

حقوق الطبع محفوظة لمؤلفه

28595

(طبع في مطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)

في ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خاتم النبيين ، وعلى
اخوانه المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين

مقدمة الكتاب

أما بعد فقد قرأت في الجرائد منذ شهر تقارب لكتاب وضعه الاستاذ الدكتور
طه حسين ، أسماه (في الشعر الجاهلي) فقلت في نفسي مدرس الآداب العربية ، في
الجامعة المصرية اراد ان لا يقصُر ثمرات جهوده العقلية على تلاميذه فنشرها ليستفيد
منها الكافة ، فحبذا لو احتذى مثاله جميع المدرسين . ولكني لم ألبث ان قرأت فصولا
ضافية الذبول لبعض شيوخ الادب في المدارس المصرية يشنون فيها على هذا الكتاب
حربا طاحنة تذهب بالياس والاخضر باعتبار أنه قد استطرد الى ذكر مسائل اتبع
فيها غير سبيل المؤمنين ، بل جحد بعض مانص عليه الكتاب المبين . ثم لم تمض غير
ايام حتى قرأت في الجرائد ان علماء الجامع الأزهر قد اجتمعوا وقرروا ان في
كتاب الدكتور طه حسين كفراً صريحاً وطالبا للحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه
عن التدريس كيلا يفتن نابذة الامة بما يثبته فيها من الاضاليل . وبينما الناس ينتظرون
جواب الحكومة اذا بالدكتور يعلن انه لم يقصد الطعن في الدين ، وانه يؤمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الخ

هذه الحلقات المتصلة من الحوادث التي أثارها هذا الكتاب جفرتني الى الاطلاع
عليه فرأيت فيه اخطاء اجتماعية وسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها ،
وألفت الدكتور لاضطراره الى تعهيد الاسباب التي حملت ذوى النفوس المريضة

على اختلاق الشعر ونسبته الى الجاهليين ، قد عول على كتب المحاضرات وهي قرارة
الاكاذيب ، ومستنقم المفتريات من كل نوع ، فجاء كتابه بما حمل من اوزار المفترين ،
وبما غلا هو فيه من تقصى اغراآت المتناظرين ، وتسويلات المتنافسين ، من
من القادة الاعلمين طامسا لمعالم أكبر ثورة اجتماعية حدثت في العالم ، ألا وهي ظهور
الديانة الاسلامية ، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول ، وفناء لغات
وشعوب في لغات وشعوب ، وتبدل مبادئ واصول بمبادئ واصول ، وطروء عهد
جديد على الانسانية انتقلت به درجات كثيرة في معارج العلم والفلسفة والاخلاق
والعمران

لاندعي هنا ان الدكتور طه حسين قصد الى تشويه جمال هذه الثورة الكبرى
في كتابه ، ولكنه بغلوه في تحرى اسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب
المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق وبالعوامل التي حملت عليه ، وبالمطامع
التي دفعت اليه ، ولم 'يسر' على كل ذلك ما يقضى به عليه مذهب ديكات من النقد
والتحيص بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الاحكام جزافا في تركيب المسلمين
الاولين ، وناليف مجتمهم ، مما لا يتفق واثر هذه الثورة التي قاموا بها في عالم الاجتماع
والعلم والمدنية ، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصمها ومناظرها قديما وحديثا
فبينما علماء الغرب لا ينالكون انفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية
التي ابعثت من بلاد العرب فجأة فرجت العالم كله رجات اذهلته عن كل شيء الا
عنها ، ولا يزال دويهايرن في آفاقه ، يصعب علينا ان نرى واحدا منا يضع كتابا لغرض
قليل الخطر هو اثبات ان الشعر الجاهلي مختلق ، يكون اثره على قارئه ان يحتقر هذه
الثورة الكبرى ، ويستخف برجالها الذين اخذوا حظا من تمثيلها والاضطلاع
باعتباؤها وقد آنت العالم ببركات لا يزال يعترف لها بها الي اليوم

فاذا كان الانجليزى يفخر بان آباه كانوا اول من فكر في وضع حد لحكم الفرد ،
واذا كان الفرنسي يفخر بان اسلافه اول من فكر في تعيين حقوق الانسان الطبيعية ،
فهلا يفخر المسلمون بان اوائلهم كانوا بايعاز من دينهم اول من اعلن الناس كافة بان
الانسانية قد بلغت من الرشد ، وانها اصبحت لا يصح ان تخضع لطوائف تنتحل

لنفسها حق الوصاية عليها ، وان السلطان للجماعة لا للفرد ، وان الممول على العقل لا على الموروثات ، وان الايمان بالدليل لا بالقليد ، وان التمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقومية ، وان الحكم بالشورى لا بالاستبداد ، وان الدين هو الفطرة التي فطر الله للنفس عليها ، لا الرسوم ولا الاشكال التي يزينا الوهم ويولدها الخيال ، وان اصل كل الاديان واحد وما فرق الناس شيئا واحزا بالاقادتهم بما صوروه لهم من الابطال والاضاليل الخ ، قلت فهلا يفخر المسلمون بهذه العراقة في الاصول العالية مع الفاعرين ، ويتحققون ان لهم اكبر اثر في ترقية الانسانية مع العاملين ؟

اني ماكدت اتم قراءه كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتني مدفوعا لوضع نقد عليه استهدف به غرضين : (اولهما) مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الامة الاسلامية ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخية ، ولا الاصول الاجتماعية ، وارى الاغضاء عنها ضرر كل الضرر بناتبة هذا الجيل وهم في هذا الدور من الانتقال

السريع

(وثانيهما) مقابلة اول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه من العناية وهذه العناية لا تعنى في عالم العلم غير النقد والتحصيل

فالله ارجو ان يجعل عملي هذا خالصا من شوائب المرااة والمماراة ، وان ينفع به الناس انه موفق للهداية ، المعين على بلوغ الكفاية

نقد كتاب الشعر الجاهلي

نبدأ بما تصدينا له من نقد كتاب الشعر الجاهلي فصلا فصلا فذمنا ما يرام ملخص كل فصل منه بعبارة المؤلف نفسه ثم نردفها بملاحظاتنا عليها فنقول :

الكتاب الاول

١
تمهيد

كتب الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان مالم يخلصه :

(هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفه الناس عندنا)
 (من قبل . واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وان فريقا آخر)
 (سيزورون عنه ازورارا ، ولكني على سخط اولئك وازورار هؤلاء اريد ان اذيع)
 (هذا البحث)

(نحن بين اثنين اما ان نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء واما ان)
 (نضع علم المتقدمين كله موضع البحث بل الشك . اريد ان لا نقبل شيئا مما قال)
 (القدماء في الادب وتاريخه الا بعد بحث وثبت ان لم ينتهيا الى اليقين فقد)
 (ينتهيان الى الرجحان)

(بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد ان ندرسها وننتهي فيها الى الحق . فاما)
 (انصار القديم فأمامهم الطريق معبدة ، أليس قد اجمع القدماء على ان طائفة)
 (كثيرة من اشعراء قد عاشت قبل الاسلام ، لهم قصائد ومقطوعات حفظها)
 (عنهم روايتهم ، وتناقلها عنهم الناس ، حتي جاء عصر التدوين فدونت في الكتب ،)
 (فلم يبق الا ان نأخذ عنهم ما قالوا راضين به ، مطمئنين اليه . فاذا لم يكن لاحدنا)
 (بد من أن يبحث وينقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون ان يجاوز مذهب انصار)
 (القديم . فالعلماء قد اختلفوا في رواية الشعر الجاهلي بعض الاختلاف فلنوازن بينهم ،)
 (وانرجح رواية على رواية ، ولنؤثر ضبطا على ضبط . هذا مذهب انصار القديم ،)
 (وهو المذهب الذائع في مصر ، وهو المذهب الرسمي ايضا ، مضت عليه مدارس)
 (الحكومة وكتبها ومناهجها)

(واما انصار الجديد فالطريق امامهم معوجة ملتوية ، فقد خلق الله لهم عقولا)
 (تجد من الشك لذة ، وفي القلق والاضطراب رضا . هم لا يطمئون الى ما قال)
 (القدماء ، وانما يلفونه بالتحفظ والشك ، ويتساءلون أهناك شعر جاهلي ؟ فان كان)
 (هناك شعر جاهلي فما السبيل الى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من)
 (غيره ؟ هم لا يعرفون ان العرب ينقسمون الى باقية وبائدة ، وعاربة ومستعربة ،)
 (ولا أن اولئك من جرم هؤلاء من ولد اسماعيل ، ولا ان امرأ القيس وطرفة)
 (وابن كثوم قالوا هذه المطولات ، وليكنهم يعرفون ان القدماء كانوا يرون ذلك)

(ويريدون ان يتبينوا أكان القدماء مصيبين ام مخطئين ؟ فهم يشكون . ونتائج)
 (هذا المذهب عظيمة الخطر فهي الى الثورة الادبية اقرب . وحسبك انهم يشكون)
 (فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يجحدون ما اجمع الناس على انه حق لاشك فيه)
 (واول شيء أجازك به في هذا الحديث هو اني شككت في قيمة الشعر)
 (الجاهلي ، وانتهي بي البحث الى شيء ان لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك)
 (ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي)
 (منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام . فشيء امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو)
 (عنتره ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وانما هو انتقال الرواة ، أو اخلاق)
 (الاعراب ، أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص ، أو اختراع المفسرين والمحدثين)
 (والمتكلمين) انتهى

راينا في هذا الكلام

ان العبارات التي اتينا عليها في الفصل المتقدم هي ملخص التمهيد الذي وضعه
 الاستاذ الدكتور طه حسين في صدر كتابه . وقد انتحي فيه مذهبا لا نقول حسنا
 فحسب ، بل نقول هو المذهب الوحيد الذي لا يصح الجري على خلافه ليس في نقد
 ما تركه لنا الاقدمون في الادب فقط ، بل وفي كل ما تركوه في جميع فروع المعلومات
 البشرية . هذا مقتضى النهضة الادبية التي نندفع في تيارها اليوم . وقد اقتضت كل
 نهضة ادبية في الامم مثل هذا الشعور جبال ما تركه لها اسلافها ، فغيروا بذلك وجوه
 توارينهم ، وقادوا به الى معارف حقة كان لها اكبر الآثار في بلوغهم الكمال الادبي
 الذي وصلوا اليه

فتمهيد الدكتور طه حسين هو المنتظر من استاذ الآداب في الجامعة ، ولوجري
 على خلافة لا تعتبر غير خليف بكانه منها ، ولا ضاع على الأمة مالا جما ينفق على
 دروس الآداب ، وعلى الطلاب اعواما نفيسة يبدلون من اعمارهم في دراستها ، ولما
 كان نتيجة كل هذه الجهود في النهاية اكثر من ظهور مؤلف لا يفترق عن مئات
 الكتب الموجودة بالمكتبات الا في التبويب والترتيب ، ولبقينا حيث كنا من هذا

(العلم النفيس الذي دخل في اطوار كثيرة لدى الامم الغربية ، واصبح بعيد الاثر في تهذيب نفوسهم ، وتلطيف شعورهم كما هي ثمرته الياقة في كل جيل)
 نعم يشق على كثير من الناس ان يشك فيما كان بعده من العقائد المقررة سنين طويلة ، وان يُسرِّي على كل ما قرأه في كتب الادب اسلوباً من النقد قد لا يُبقى فيه ولا يذر . ولكن التبعة التي يشعر بها حفظة الادب وحاملة امانته تضطرم الي تمحيصه ، وتحرير مسائله وان كره ذلك الناس اجمعون)
 وكل الذي نأخذه على الدكتور طه حسين في هذا التمهيد ذهابه الي ان الشك الذي اعتراه في الشعر الجاهلي حدث ادبي جديد وان العلماء الاقدمين كان قصارى ما عملوه في الشعر الجاهلي انهم اختلفوا في روايته بعض الاختلاف ، وتفاوتوا في ضبطه بعض التفاوت . والحقيقة انهم نظروا فيه وشكوا في نسبته الي الشعراء الذين عينهم الرواة وقرروا ان هؤلاء قد كذبوا على القدماء حتي اختلط القديم بالجديد ولم يعد من الممكن تمييز بعضه عن بعضه الا آخر

فقد ذكروا ان حماداً الرواية الذي كان عائشاً في القرن الثاني للهجرة كان يضم القصائد المطولة وينسبها للعرب . وان معاصره حماد عجرد قد حذا حذوه واستن بسنتها خلف الاحمر . وقد ذكروا عن الاخير انه تنسك في آخر حياته واراد ان يدل اهل الكوفة على ماضيه لهم ليميزوه عن كلام العرب فأبوا عليه لاستحالة ذلك ، محتجين بان اكاذيبه كانت قد انتقلت الى الآفاق

وقال الامام الجاحظ المتوفي سنة (٢٥٥) هـ (ان خلفاً هذا اورد علي الناس سبب الاعراب وهو من ارق الشعر وما احراه ان يكون مصنوعاً)
 وقال العلامة بن سلام في كتاب الشعر والشعراء : (زاد الناس في قصيدة أبي طالب التي قالها في النبي صلى الله عليه وسلم حتي لا يُدرى اين منهاها)
 وقال الاصمعي : (اقامت في المدينة زمناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة الا مصحفة أو مصنوعة)

وروي الجاحظ ايضا : (ان بعضهم قال لا احد الرواة انك تكذب في الحديث فقال وما عليك اذا كان الذي اريد فيه احسن منه ، فوالله ما ينفعك صدقه ولا يضره

(كذبه)

وقال المفضل الضبي من اكبر علماء اللغة المتوفي سنة ١٨٦ : (سلب على الشعر)
 من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً : فليل له وكيف ذلك انخطي في روايته ام
 يلحن ؟ قال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من اخطأ الى الصواب ، ولكنه
 رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر
 يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط اشعار
 القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد واين ذلك ؟)
 وتأخذ على الدكتور طه حسين ايضاً تحامله على الطائفة التي ساءم بانصار القديم
 وذهابه الي انهم مطمأنون الي ما قاله القدماء ، وانهم اغلقوا على انفسهم باب الاجتهاد
 في الادب . فان كان يقصد بهذا القول انهم لا يجراؤن على ان يفعلوا فعله في نقد
 الشعر وتمحيصه فقد وجب علينا ان نرده الى الصواب فيه ، ولا نجد أفل في اقناعه
 من نقل ما كتبه الاديب المشهور الاستاذ مصطفى افندي صادق الرافي في كتابه
 (تاريخ آداب العرب) الذي نشره في سنة (١٩١١) اي قبل خمس عشرة سنة من
 صفحة (٣٦٦ الي ٣٨٣) فقد جاء فيه قوله :

(لما جاء الاسلام واندفع به العرب الى الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو)
 (حينئذ من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد اخذ منهم السيف والحيث ،)
 (وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب روايته صنعت القبائل الاشعار ونسبتها)
 (الي غير أهلها تنكث بها وتعاض مما فقدته ، واخذت عنهم الرواة)
 (واول القبائل التي وضعت الشعر في الاسلام قریش وكانت أقل العرب شعرا)
 (وشعراء ، ووضعوا على حسان بن ثابت اشعاراً كثيرة ولما شمر الرواة في طلب)
 (الشعر للشاهد وانما استفاض الوضع في العرب وتفرغ قوم منهم لذلك)
 وقال الاستاذ الرافي عند ذكره شمر الشواهد : (هذا النوع الذي يدخل فيه)
 (اكثر الموضوع والكوفيون اكثر الناس وضعاً للاشعار التي يستشهد بها)
 (واستمروا على الوضع حتي بعد ان استبحرت الرواية في أواخر القرن الثالث)
 (وكان من الرواة قوم تفردوا بعلم القبائل واخبارها واشعارها وهؤلاء الذين فتقوا)

(هذه الفتوق في الادب . وقد كانت علوم أولئك النفر تدور على الخبر والشعر مما)
 (لا يبنى عليه دين ولا يدخل الناس منه في حرج ، ولا يكون فيه من بعد الا)
 (افساد التاريخ العربي وأهزون بذلك مادام هذا التاريخ قائما بالتأويلات)
 (والمفاخرات والمناشدات وبكل ما نسخه الاسلام أو جاء بخير منه . وليست الغاية)
 (من اكثره الا ضربا من السمر ونوعا من لهو الحديث . وقد تزيد فيه العرب)
 (انفسهم . وهذا هو السبب في انك لا تكاد تجد للجاهلية تاريخا صحيحا ، ولا ترى)
 (فيما تتصفحه الا التكاذيب والمبالغات وما يتصل بها)

(اما اهل الشعر فيضعون منه لثلاثة اغراض : للشواهد على العلوم والشواهد)
 (على الاخبار ، والاتساع في الرواية)
 (وقد نشأ شعر الشواهد من الاستشهاد بالشعر على التفسير والحديث وعلى كل)
 (ما قامت به الرواية)

(فلما كثر القصص واهل الاخبار اضطروا من اجل ذلك ان يصنعوا الشعر)
 (لما يلقونه من الاساطير فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الانبياء)
 (واولادهم واقواهم . وقد كتب محمد بن اسحق المتوفي سنة (١٥٠) في السيرة من)
 (اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط واشعار النساء ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود .)
 (فكتب لهم اشعار كثيرة حتى صار فنيحة عند علماء السير ورواة الشعر)

(والاتساع في الرواية كان من اسباب الوضع يقصد به فحول الرواة ان يتسعوا)
 (في روايتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من ابوابها وانذا يضعون على فحول الشعراء)
 (قصائد لم يقولوها ، ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم ، ويدخلون من شعر)
 (الرجل في شعر غيره هوى وتعتنا ورأس هذا الامر حماد الراوية الكوفي المتوفي)
 (سنة ١٥٥)

(وقد وضع خلف الاحمر الراوية قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها)
 (قصيدة الشنفرى المشهورة بلامية العرب . وله قصائد اخرى نص على بعضها)
 (العلماء وبنوا انها مصنوعة . وقد وضع على شعراء عبد القيس شعرا كثيرا)
 (ومن اشهر رواة الكوفيين خالد بن كلثوم السكلي وله صنعة في الاشعار المدونة)

على القبائل وقد الف فيها كتاباً) انتهى ما اقتطفناه من كتاب الاستاذ مضمط في افندي صادق الرافي

يرى الفاريء مما مر أن علماء اللغة قديما وحديثا قد رأوا في الشعر الجاهلي ما رآه الدكتور طه حسين اخيراً. فإذا كان في هذه البلاد أو في غيرها رجال يعتقدون ان الشعر الجاهلي سليم من الخلل والخطب والوضع فذلك ممن لا يعتد بعلمه ولا يؤخذ بقوله. وكل ما في المسئلة ان الادباء الاقدمين لم يبلغوا في تعيين أسباب الوضع المبلغ الذي ترضاه عقولنا اليوم. وهذا هو الفراغ الذي تصدى الدكتور طه حسين لسده في كتابه الذي ننتقده اليوم

٢

منهج البحث

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما ملخصه :

- (احب ان اكون واضحاً جلياً ، وان اقول للناس ما اريد ان اقول دون ان اضطرهم الى ان يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير)
- (والكشف عن الاغراض التي ارمى اليها)
- (اريد ان اقول اني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من اصحاب العلم والفلسفة ، اريد ان اصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث .)
- (والناس جميعاً يعلمون ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه)
- (خلوا تاماً . والناس جميعاً يعلمون ان هذا المنهج الذي سخط عليه انصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر قد كان من اخصب المناهج وأقومها واحسنها أثراً)
- (وانه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، وانه قد غير مذاهب الادباء في ادبهم ،)
- (والفنانين في فنونهم ، وانه الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث)

(فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول ادبنا العربي القديم وناريخه بالبحث ،
 (والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا انفسنا من كل ما قيل)
 (فيها من قبل)
 (نعم يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى قوميتنا)
 (وكل مشخصاتها ، وان ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وان ننسى ما يضاد هذه)
 (القومية وما يضاد هذا الدين . يجب ان لا نتقيد بشيء ، ولا ندعن شيئاً الا)
 (مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك انا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل)
 (بهما فسنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية)
 (وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ، وهل افسد على القدماء شيء غير هذا ؟)
 (كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الاسلام ، فأخضعوا كل شيء لهذا)
 (الاسلام وحجهم اياه ، ولم يعرضوا للبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب ،)
 (اولون من ألوان الفن الا من حيث انه يؤيد الاسلام ويعزه ويعلى كلمته ، فما)
 (لاء مذهبهم هذا اخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرفاً)
 (فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم ،)
 (ولنجتهد في ان لا نتأثر كما تأثروا ، وفي ان لا نقسد العلم كما افسدوه . لنجتهد في)
 (ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغض منهم ، ولا مكترئين)
 (بنصر الاسلام أو النعي عليه ، ولا معنيين بالملائمة بينه وبين نتائج البحث العلمي)
 (والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ماتا باه القومية ، او تنفر منه)
 (الاهواء السياسية او تكرهه العاطفة الدينية . واني غير مسرف حين اطلب منذ)
 (الآن الى الذين لا يستطيعون ان يبرأوا من القديم ، ويخلصوا من اغلال العواطف)
 (والاهواء حين يقرأون العلم أو يكتبون فيه ، ان لا يقرأوا هذه الفصول . فلن تقيدهم)
 (قراءتها الا ان يكونوا أحراراً حقاً)

رأينا في هذا الكلام

انا لا اتمالك نفسي من ان أقول صراحة ان هذا الكلام ثمين ، ولا اغالى ان قلت

انه أعرق في الاسلام من كل كلام قرأته قبل هذا، ولا يعيبه الا شيء واحد، وهو انه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة على حين انه مذهب القرآن الذي هو دستور هذه الجماعة. فلو كان قال انه سيعالج البحث في الادب العربي وتاريخه ناسيا قوميته وكل مشخصاتها، ودينه وكل ما يتصل به، وغير متقيد بشيء، ولا مدعن لشيء، الا مناهج البحث الصحيح، جاريا بذلك على مذهب القرآن (لاديكارت) لكانت كلماته هذه عدت أجمل تفسير لآيات الكتاب التي وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق

نعم، أصبح يعز على المعاصرين ان يجعلوا للدين أو لما يتصل به سلطانا على مناهجهم العلمية، وأضحى من لا يكون على اقصى حد من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثقة لتقيده بأراء يعدها مقدسة ويحاول ان يخضع كل حقيقة لسلطانها، ونحن نعذرهم في هذا الشعور، لانهم لا يعرفون الاسلام ولا يدرون انه من مناهج البحث عن الحقائق ليس وراءه مرمى. فان كان المانع الانفة من الاتباع، فلا اتباع حاصل لديكارت، فهل من مرجح الانفة من اتباع محمد وعدم الانفة من اتباع ديكارت؟ وهل فرق في التبعية بين أن يقل هذا قرآني وهذا ديكارتني؟

اما انا فلا اجد محلا للانفة من اتباع المذاهب الاصلاحية على الاطلاق، وان كنت اجد فرقا بين الاعلان بتبعيتي لمذهب ديكارت وتبعيتي لمذهب القرآن. وهذا الفرق هو ان ديكارت رجل فرنسي ليس بيني وبينه اية علاقة من جنس أو لغة أو صلة من اى نوع كانت. واما القرآن فهو كتاب الامة التي انا منها، وبينى وبينه كل انواع الصلات المعنوية التي تربط الانسان بشيء من الاشياء، وقد سبق ديكارت بعشرة قرون، واسلوبه ادق من اسلوبه، واجمع لوجوه الاحتياط منه

اما وقد تأدينا الى هذا القول فلا مناص لنا من تبين ماهية المذهب القرآني في البحث عن الحقائق انري هل يفي بحاجة الدكتور طه حسين ويزيد ام لا:

(١) — يريد الدكتور طه حسين ان لا يتقيد بمذهب من سبقه من المتكلمين وان لا يعتد بأرائهم فان لهم مارأوا وله ما يرى. والقرآن يقره على ذلك بل يطالبه به فانه بعد أن ذكر ابراهيم واسماعيل واسحق قال: « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم

ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» وقال «كل نفس بما كسبت رهينة» وقال «كل امرئ بما كسب رهين»

(٢) — يرى الدكتور طه حسين إن صواباً أو خطأ أن المتقدمين قد شايعوا أوهامهم واهواءهم في تقرير ما قرروه عن العلم فلا يريد مجاراتهم فيه . والقرآن يؤيده في مذهبه هذا فهو ينعي على المتأثرين بالاهواء ، والاخذين بالظنون فقال: «إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» أي يكذبون . وقال «وما يتبع الا ظنا وإن الظن لا يغني من الحق شيئا»

(٣) — يطلب الدكتور طه حسين أن يتوخي في بحثه عن الحقيقة نسيان قوميته وكل مشخصاتها . وقد محق القرآن القوميات و مشخصاتها فقال : «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» وشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله «لقد اذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء كلكم من آدم وادم من تراب . لافضل لعربي على اعجمي ولا لأعجمي على عربي» ، ولا لأبيض على اسود الا بالتقوى او بعمل صالح»

ويزيد القرآن على هذا ، التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم ويقرر بان الانسان مسؤول عن اعمال حواسه وقلبه في معالجة الباطل فقال : «ولا تقنّف» (أي ولا تتبع) ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا»

وقد تجاوز القرآن حدود كل مذهب فلسفي فعد الانسان مسؤولا حتي عن الخواطر التي تجيش في قلبه ، والهواجس التي تهجس في باله تنزيها له عن الاباطيل والاضاليل حتي ما كان منها منزويا في احشاء صدره فقال «ان تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله»

فاذا كان لديكارت منهج في البحث عن الحقائق عرف بالمنهج الديكارتى *La méthode Cartésienne* فان للقرآن منهجا نسميه بالمنهج القرآني *La méthode Coranique* وقد قابلناه بمنهج ديكارت فبزه وزاد عليه . فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه في أثناء البحث عن الحقيقة ، فان دينا يخوله كل هذه الحرية في البحث ، ويخوفه كل هذا التخويف من الوقوع في

الباطل ، ويهديه لهذا المنهج من التثبت جدير أن يجعله الانسان دستوره في كل ما يتصدى له من انواع العلوم

انما نخشي من تأثير الدين على مثل البحث الذي تصدي له الاستاذ طه حسين وهو الادب اذا كان من الاديان التي تعاكس حرية البحث في اصول الجماعات وفي درجاتها من الارتقاء ، وفي مكاناتها بين الامم ، وفي تأثيرها العالمي ، وفي مصادر لغاتها ، وفي قيمة آدابها . ولكن اذا كان كالدين الاسلامي ينص على ان الامم كلها سواء ابوه ، آدم وادم من تراب ، وار لا فضل لعربي على اعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لبياض على اسود الا بالتمقوى أو بعمل صالح كما رأيت ، وعلى ان الباحث يجب ان يتبع الحق حيث كان جريا على قوله تعالى : « وليس بعد الحق الا الضلال » ، وعلى انه يجب ان ينظر في جميع مصادر المعرفة ليتصيد الحق من جميع مظانه لقوله تعالى : (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب) ، وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والاقر بين لقوله : (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقر بين) ، وعلى ان الامم كلها سواء في تحمل تبعه اعمالها فلا محاباة ولا استثناء لقوله تعالى : (ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به) ، وعلى ان الانسان يجب عليه ان يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام : فقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، قلنا ولكن اذا كان دين كالدين الاسلامي ينص على هذا كله فكيف يجب نسيانه في اثناء البحث وهو اكمل دستور عرف عن الباحثين في الحقائق الي البوم ؟ وبأى مرجح نجعل الاسلوب الديكارتي نصب اعيننا في اثناء بحث مانريد بحثه ، ونفخر بالانتماء اليه ، ولا نجعل الاسلوب القرآني نصب اعيننا في البحث ونباهي بالجرى عليه ؟

يقول الدكتور طه حسين (انا اذا لم نذس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر الي المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين) ونحن نجيبه على هذا بقولنا كيف نضطر الي المحاباة وارضاء العواطف وهذا الدين نفسه يزجرنا عن المحاباة وارضاء العواطف فيقول : « كونوا قوامين بالقسط شهداء

للهول على انفسكم». بل وينص على ان نعدل حتى مع اعدائنا الذين يكرهوننا فيقول :
« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » اى ولا
تحملنكم عداوة قوم على ان لا تعدلوا فيهم وفي الحكم عليهم بل اعدلوا
وكيف نغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين وديننا نفسه لا يعترف بقومية
بل يعد الناس كلهم سواء ويخفضنا على اعتبارهم كذلك ؟

ويقول الدكتور طه حسين : (وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل افسد على القدماء
شئ غير هذا ؟)

نقول هب انهم ما فعلوا غير هذا فما جريرة الدين في ذلك وهو ينهى عنه ويحث
على تقيضه ؟ وهل من العدل ان نأخذ الدين بجريرة من لم يجر على اصوله ؟
هل لي ، وانا أرى في كتاب الدكتور طه حسين اخطاء كثيرة ، ان ارفض الجرى
على مذهب ديكرت وعلى تناسيه وتجاهله لان الدكتور اعلن انه من اخص اشياعه فلم يحسن
الجرى عليه ، باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التي لا يقوم على ثبوتها شبه دليل ،
بل التي يقوم الف دليل على مناقضتها للواقع ؟

ويقول الدكتور طه حسين : (كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الاسلام
فاخضعوا كل شئ لهذا الاسلام وحبهم اياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمي ، ولا لفصل
من فصول الادب ، ولون من ألوان الفن الا من حيث انه يؤيد الاسلام ويعزوه ويعلى
كلمته ، فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه وما نافره انصرفوا عنه انصرفا)

نقول في الجواب على هذا الكلام : ان من فعل هذا فعله تبعته ، فان ديننا ينص
على وجوب اتباع الاصول التي ذكرتها في كل موطن من مواطن الحياة ، فلا يكون في
حاجة لمن يعزه ويعلى كلمته بما ينافي قواعده ويضاد وصاياه ، فانه هو نفسه يعز نفسه
ويعلى كلمته بسمو تلك القواعد والوصايا . فاذا كان القدماء قد اخذوا مالا من مذهبهم
ذلك وانصرفوا عما نافره فتلك فعلتهم ولا ذنب للدين فيها ، ولا تبعه علينا نحن مما
فعلوا : « تلك امة قد خلت لها ما كسبت واكرم ما كسبت ولا تسالون عما كانوا يعملون »
والدين الاسلامي لم يضع للمباحث حدا « قل انظروا ما ذا في السموات والارض »
ولم يبين ما يجب اخذه وما يجب تركه من ثمرات الجهود الانسانية بل ترك لعقول حرة

تجول في كل مجال ، وتأخذ من المعارف والصنائع ما يؤهلها اليه استعدادها في دائرة المصلحة الشخصية والعمومية . فمن جرى على غير هذه السنة فعليه وزر ما فعل ، ولا عاب على الدين من جراء عمله

ويقول الدكتور طه حسين : (لنجته في ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغض منهم ، ولا مكترئين بنصر الاسلام او النعي عليه ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية ، او تنفر منه الالهواء السياسية ، او تكرهه العاطفة الدينية)
نقول ان هذا الكلام لا غبار عليه وهو مذهب كل طالب للحقيقة الا قوله ولا مكترئين لنصر الاسلام او النعي عليه ، فان مثل هذا القول لا يصح اطلاقه على دين لا مرمى له الا ايصال الانسان الى الحقيقة ، وهو لذلك ينهج له من مناهج بزبها الفلاسفة وفيهم ديكرت الذي اعلن مؤلفنا غير مرة انه من اتباعه ، وقد اثبتنا ذلك بنصوص الايات مما لا سبيل الى انكاره

الخلاصة اننا نعد منهج الدكتور طه حسين في البحث وهو المنهج الذي لخصناه في هذا الفصل من اكمل المناهج بل هو المنهج الوحيد الذي ينطبق على اصول الفلسفة العصرية المنتجة الا ما ارتكبه من غمط حق الاسلام في هذا الموطن . فانه ان كان يعرف مكان الاسلام من هذا المنهج كان الاولى به ان يقول ان المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من افساد الادب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذي يحضهم عليه القرآن وانه سيجرى على ذلك المنهج الذي يوافق ما جاء بعده بالف سنة كمنهج روجر باكون وديكرت وغيرهما . وان كان لا يعرف الاسلام كان يجب عليه ان يلم به قبل ان يخط حرفا في الادب العربي فان علاقته باآداب هذه الامة وعقليتها وتأثيره فيها مما لا يمكن انكاره او عدم الاعتداد به على اية حال

مرآة الحياة الجاهلية يجب ان يلتبس في القرآن لافي الشعر الجاهلي

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان مالمخصه :

(على اني احب ان يطمئن الذين يكلفون بالادب العربي القديم ويجدون شيئاً)
 (من اللذة في ان يعتقدوا ان هناك شعراً جاهلياً يمثل حياة جاهلية انقضي عصرها)
 (بظهور الاسلام . فلن يحو هذا الكتاب ما يعتقدون ويجدون في درسها ما يبتغون)
 (من لذة علمية وفنية ، بل انا اذهب الي ابعد من هذا ، فأزعم اني سأستكشف لهم)
 (طريقاً جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ، او بعبارة)
 (اصح يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة)
 (مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في المطولات وغيرها مما ينسب الى)
 (الشعراء الجاهليين . ولكني لاسلك اليها طريق امرئ القيس والناطقة والاعشى)
 (وزهير لاني لائق بما ينسب اليهم ، وانما اسلك لها طريقاً اخرى وادرسها في نص)
 (لاسبيل الي الشك في صحته ، ادرسها في القرآن . فالقرآن اصدق مرآة للعصر الجاهلي)
 (ادرسها في القرآن ، وادرسها في شعر الشعراء الاخرين الذين جاؤا بعده ولم تكن)
 (نفوسهم قد طابت عن الحياة والآراء التي ألفها آبائهم قبل ظهور الاسلام . بل)
 (ادرسها في الشعر الاموي نفسه . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق)
 (وجريروذي الرمة والاخلط والراعي اكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي)
 (ينسب الي طرفة وعنترة والشمخ وبشر بن خازم)

(قلت : ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهذه القضية غريبة ولكنها)
 (بدهية حين تفكر فيها قليلاً . فليس من اليسير ان نفهم ان الناس قد اعجبوا)
 (بالقرآن الا ان تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الاثر الفني)
 (المديح وبين الذين يعجبون به حين يسمعون او ينظرون اليه . وليس من اليسير)

(ان نفهم ان العرب قد قاوموا القرآن وجادلوا النبي فيه الا ان يكونوا قد فهموه)
 (ووقفوا على اسراره ودقائقه . وليس من الممكن ان نصدق ان القرآن كان جديداً)
 (كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا آمن به بعضهم ، ولما جادل فيه بعضهم)
 (الا آخر . انما كان القرآن جديداً في اسلوبه ، جديداً فيما يدعو اليه ، جديداً فيما)
 (شرع للناس من دين وقانون . وفي القرآن رد على الوثنيين وعلى اليهود وعلى النصارى)
 (والصابئة والجوس ، وهو كان يقصد بالرد على هذه الملل فرقا من العرب كانت)
 (تمثل هذه الملل في البلاد العربية نفسها . هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون ، واليهود)
 (فعارضه اليهود ، والنصارى فعارضه النصارى . ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا)
 (لينة ، وانما كانت تقدر بمقدار ما كان لاهلها من قوة ومنعة . فاما وثنية قريش)
 (فقد اخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب . واما يهودية اليهود فقد ألّبت)
 (عليه وجاهدته جهادا عقليا ثم انتهت الي الحرب . واما نصرانية النصارى فلم)
 (تكن معارضتها قوية لقلة اهلها في البيئة التي ظهر فيها النبي ، والقرآن في كل ذلك)
 (انما كان يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفتها العرب)

(فاما هذا الشعر الجاهلي الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة)
 (جافة بريئة او كالبريئة من الشعور الديني القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على)
 (النفس والمسيطرة على الحياة العملية . أو ليس عجيبا ان يعجز الشعر الجاهلي كله)
 (عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين !)

(اما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو اهلها للجدال)
 (عنها . فاذا رأوا ان الجدال قد اصبح قليل الغناء لجأوا الى الكيد ثم الى الاضطهاد)
 (ثم الى الحرب)

(افتظن ان قريشا كانت تذيب ابناءها الوان العذاب ثم تنصب لهم الحرب)
 (وتضحي في سبيلها بقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثله هذا الشعر)
 (الذي يضاف الى الجاهليين ؟ كلا)

(فالقرآن اذن اصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي)
 (يسمونه بالجاهلي . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها وانما يمثل شيئا)

(آخر لانجده في هذا الشعر ، يمثل حياة عقلية قوية ، وقدرة على الجدال والخصام)
 (وقد وصفهم بها القرآن . وفيهم كانوا يجادلون ؟ في الدين وما يتصل به من المسائل)
 (كالبعث والخلق والاتصال بالله وفي المعجزة وما الي ذلك)

(افتظن ان قوما يجادلون في هذه الاشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة يكونون)
 (من الجهل والغباوة والغلظة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف الي)
 (الجاهليين ؟ كلا ، لم يكونوا جهالا وانما كانوا اصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة)
 (وعيش فيه لين ونعمة)

(والقرآن يعطينا عن العرب صورة اخرى فهو يحدثنا بان العرب كانوا على)
 (اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وفرقهم شيعا . أليس القرآن)
 (يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيه العرب الي)
 (حزبين مختلفين حزب يشايح أولئك وحزب يناصر هؤلاء ؟ فانت ترى ان)
 (القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم وهو يصف اتصالهم الاقتصادي)
 (بغيرهم من الامم في السورة المعروفة (لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف)
 (وسيرة النبي تحدثنا ان العرب تجاوزوا بوزاباب المندب الي بلاد الحبشة ألم)
 (بها جر المهاجرون الاولون الي هذه البلاد ؟ وهذه السيرة نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا)
 (الاخيرة الي بلاد الفرس . وبانهم تجاوزوا الشام وفلسطين الي مصر . فلم يكونوا اذن)
 (معزولين ولا بنجوة من تاثير الفرس والروم والحبش والهند وغيرهم من الامم المجاورة)
 (لهم . ولم يكونوا على غير دين ، ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ، ولم يكونوا في عزلة سياسية)
 (أو اقتصادية . كذلك يمثلهم القرآن)

(واذا كانوا اصحاب علم ودين ، واصحاب ثروة وقوة وبأس ، واصحاب سياسة)
 (متصلة بالسياسة العامة ، متأثرة بها مؤثرة فيها ، فما اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة)
 (راقية لامة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد)
 (ظهر في امة جاهلة همجية !)

رأينا في هذا الكلام

تمهيد

قبل أن نناقش الدكتور طه حسين فيما ادلي به من الآراء في الفصل المتقدم رأينا ان نأتي على موجز من تاريخ الامة العربية فنقول:

(تاريخ العرب في الجاهلية) لا يزال في تاريخ العرب في الجاهلية غموض كبير على كثرة ما تكلم فيه المتكلمون وكل ما كتب في الكتب العربية من تاريخ العرب يراد به الوجهة الادبية لا التاريخية غالبا فإين هو من الحقائق المؤيدة بالاساطير والنقوش التي لا مجال للشك فيها ؟

يوجد للتاريخ العربي مصادر غير عربية اقدمها التوراة فان في سفر التكوين شي من أخبار العرب وفي أسفار اخرى ذكر بعض قبائلهم وملوكهم

وقد ألم المؤرخ اليوناني هيرودوتس المتسوفي في اوائل القرن الخامس قبل الميلاد بشيء من ذكر العرب . وألم غيره من المؤرخين بذكر أشياء عن العرب ليس فيها كبير فائدة . وإنما الفضل في الاقاصى في تاريخ العرب للمؤرخين استرابون وبلينيوس وبريلوس و بطليموس فانهم ألوا بجميع ما قيل عن العرب وفصلوه تفصيلا

(الآثار العربية والتاريخ) للآثار فائدة كبيرة جدا في كشف توارخ الامم فقد كان تاريخ المصريين لا يزال غامضا لولا مادونوه من اخبارهم على آثارهم ومعابدهم كذلك للعرب آثار باليمن والحجاز وغيرها عليها نقوش حميرية بالقلم المسند أو نقوش آرامية بالقلم النبطي وغيره . فلما اهتدي بحاثو أوروبا الى اماكنها قصدوها لحل رموزها وكشف النقاب عن تاريخ العرب

أول من تصدى لهذه المباحث المالم الالماني ميخائيلس المتوفي سنة ١٨٩١ ثم عثر الضابط الانجليزى ولسند سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام ولم يستطيعوا حل رموزها الا بعد سنين

ووجد الضابط الانجليزى كروتندن في صنعاء نقوشا ظن انها من خرائب مدينة مأرب

اول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش كان المسيو (ارنو) فانه اخترق اليمن سنة ١٨٤٣ وعاد معه ٥٦ نقشا نقلها من صنعاء والحربية وحرم بلبس ثم جاء المستعرب (ارسياندر) فخل رموز الآثار التي وجدها ارنو وذلك سنة ١٨٤٥ ثم أن وزارة المعارف في باريز أرسلت المستعرب يوسف هاليفي سنة ١٨٦٩ الى اليمن فسار حتي بلغ مأرب ورجم معه ٦٨٠ نقشا ثم جاء ادورد غلازر الالماني فساح في اليمن مرارا ونقل منها الف نقش بينها نقوش غاية في القيمة التاريخية

ثم حاول الوصول الى مأرب رجال آخرون فهلكوا في الطريق

وعثر الباحثون ايضا في شمال بلاد العرب على آثار الانباط فوجدوا منها آثارا كثيرة في مدينة بطرا ومدينة الحجر . واكتشفوا في حوران والعلا نقوشا بالخط المسند الحميري فكشفت جميع هذه النقوش النقاب عن جزء من التاريخ العربي القديم وما بقي منه اكثر

ثم ان البحاين عثروا في آثار بابل وآشور ومصر وفنيقية على شيء من تاريخ العرب . فوجدوا في بابل نقوشا بالخط المسماري وقفوا منها على تاريخ العمالة من العرب البائدة . واستدلوا من النقوش التي وجدوها في آشور وبابل على قيام دولة حمورابي العربية استولت على بابل عدة قرون قبل الميلاد باكثر من الف سنة

(من هم العرب) العرب من الساميين والساميون هم الشعوب الذين يتكلمون بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية . ومنها الشعوب التي كانت تتكلم باللغة الفينيقية والآشورية والآرامية

ومعنى ساميين انهم منسوبون الى سام بن نوح عليه السلام (والناقد البصير يحكم لاول وهلة ان هذه اللغات مشتقة كلها من اصل واحد لتسابها لفظا وتركيبا) وقد اصطلح مؤرخو العرب ان يقسموا تاريخهم قبل الاسلام الى قسمين :

العرب البائدة والعرب الباقية. فالبائدة عندهم هي التي بادت قبل الاسلام. والباقية
 قسمان: العرب القحطانية باليمن، والعرب العدنانية بالحجاز وما يليها
 (العرب البائدة) هي قبائل عاد وثمود والعمالة وطسم وجديس واميم وجرم
 وحضر موت ومن يتصل بهم. ويقال لهم العرب العاربة
 وقد كان لهذه القبائل ملوك ودول وقد امتد ملكهم الى الشام ومصر
 وروي المؤرخون ان هذه القبائل كانت تسكن اولاً في بابل من آسيا الصغرى ثم
 هاجروا الى جزيرة العرب. وقالوا ان بنى عاد والعمالة ملكوا العراق
 ثم ان مؤرخي العرب يقسمون القبائل البائدة الى قسمين العماليق هم من نسل
 لاوذ بن سام وسائر القبائل الاخرى من ارم بن سام
 فالعمالة في نظر مؤرخي العرب من نسل لاوذ بن سام والعرب البائدة من نسل
 ارم اى اراميين
 والعمالة هم اهل شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا
 فيها اسرة ملكية
 قلنا ان العرب ملكوا العراق وأسسوا بها دولة ونقول ان هذه الدولة سماها المؤرخون
 المحدثون دولة حمورابي وهو اسم اكبر ملوكها ومؤسس أقدم شريعة في العالم. وزعموا
 انه كان من اهل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. أثار على الدولة البابلية
 الاولى فاقبض قومه تقاليد البابليين ومدنيتهم واستخدموا لغتهم ثم فنى المقهورون في
 القاهرين وصارت الدولة البابلية عربية بحت
 اما دولة العمالة في مصر فبتدىء من سنة ٢٢١٣ الى ١٧٠٣ قبل الميلاد جاورها
 من طريق برزخ السويس أو البحر الاحمر فاقاموا بها وكثر عددهم فيها ثم لما سنحت
 لهم الفرصة وثبوا على ملوكها وملكوا البلاد دونهم. وكان اول ملوكهم سلاطيس. حكم بعده
 بنوه الى سنة ١٧٠٣ فتمكن المصريون من انتزاع الملك من ايديهم وطردوهم ففرقوا في
 جزيرة العرب قبائل وانحازاً وأنشأوا دولاً في اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب
 اما عاد فهي من القبائل الآرامية ولذلك سميت ايضاً عاد ارم. والعرب يضربون
 المثل بهم في القدم

اما نمود فكان مقامها في الحجر المعروفة بمداخن صالح في وادي القرى بطريق الحجاج الشامي وكان اليهود يسكنونها قبل الاسلام

اما طسم وجديس فقد قال عنهما مؤرخو العرب انهما من ارم مثل سائر العرب البائدة وذكروا انهما سكنتا اليمامة في شرق نجد وقاعدتها القرية . وكانت طسم صاحبة السيادة الي أن تولاهما رجل ظلم فانقت جديس من الخضوع له فقتلوه هو وخاصة قومه ، فهرب رجل الي تبع اليمين حسان بن اسعد فشكا اليه ما آنته طسم واستنجد به فارسل الي طسم وجديس جيشا فافناهم معا

(دولة الانباط) ذكر العرب دولة الانباط في كتبهم وارادوا بهم اهل العراق وقد تحقق المنقبون في الآثار والمتبعون لتواريخ اليونان والرومان وما ذكر في التوراة ان دولة الانباط كانت عربية قامت بمشارف الشام في الجنوب الشرقي من فلسطين ممتدة الي رأس خليج العقبة . يحدها من الجنوب بادية الحجاز ومن الشمال فلسطين ومن الشرق بادية الشام وكان اليونان يسمون هذه المملكة ببلاد العرب الحجرية وكانت عاصمتها بطرا (الحجر)

كان اقدم سكان هذه الجهة الحوريين وهم سكان الكهوف القدماء وكانوا قبائل على كل منها رئيس . غزاهم داود ملك اليهود وكانوا يسمونهم الادوميين وبقوا تحت سيادة اليهود الي أن ضعف امرهم فاستقلوا وكبر سلطانهم في عهد بختنصر اذ ساعدوه في حروبه لليهود . ثم دهمهم الانباط من الشرق فملكوا مملكة ادوم قبل القرن الرابع للميلاد وبقيت الي اوائل القرن الثاني بعده حتي دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦ وم عرب على الارجح

أما مدينة بطرا عاصمتهم فكانت قائمة في مستوى من الارض تحيط به الصخور عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن وكان العرب يسمونها الرقيم

كان للنبطيين ملوك ووزراء ونظام سياسي واقتصادي وكان الاسم الغالب على ملوكهم الحارث أو عبادة أو مالك . فكان الحارث الاول سنة ١٦٩ قبل الميلاد وهو اول ملوكهم

اما مدينة تدمر فهي الواقعة في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق وتبعد نحو ١٥٠ ميلا عن دمشق نحو الشمال الشرقي تحيط بها جبال من اشهر ملوكها (زينوبيا) وهي امرأة اذينة وكانت وصية على ابنها القاصر فلما حلت مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الى انقرة فقاتلها القيصر الروماني اورليان وهزمها

كانت زينوبيا من أعجب النساء شجاعة ودهاء وكانت تركب الخيل وتجاس قوادها وقد رجح بعضهم ان زينوبيا هي التي يسميها العرب الزباء ملكة الجزيرة بعد أبيها عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ويذكرون انها احتملت على جذيمة الابرش ملك الحيرة الذي قتل اباها حتى قتله

(دول اليمن) اليمن هو الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب وكان ينقسم الى ٨٤ خلافا والخلاف تحتها مدن ومحافد وقرى
اما تاريخ اليمن فمن أشد التواريخ سقما واضطرابا

اول من ملك اليمن يعرب بن قحطان فانه قهر قوم عاد باليمن والمالقة بالحجاز وولي اخوته على ما كان بايديهم فولى أخاه جرهما على الحجاز ، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضر موت بن قحطان على جبال الشحر، وعمان بن قحطان على عمان ثم تولى بعده ابنه يشجب بن يعرب ثم ابنه عبد شمس وهو سبأ الذي بنى سد مأرب المشهور

وقد اعقب سبأ هذا عدة اولاد اشهرهم حمير وكهلان . ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير وهو مؤسس الدولة الحميرية وهي طبقتان الملوك التبابعة وملوك حمير . للمؤرخين اختلافات كبيرة في عددهم وعصورهم وتتابعهم ولكنهم اتفقوا بان آخر ملوك حمير واول التبابعة هو الحارث الرائي

اما التبابعة فالولم الحارث الرائي المذكور وآخرهم ذو جدن حكم بعد ذي نواس الذي غلبه الاحباش وأخذوا اليمن منه وقد بلغ عدد التبابعة ٢٦ تبعا

ثم فتح الاحباش اليمن في آخر عهد التبابعة وكان عليها التبع ذو نواس فهرب وهلك في هروبه فخلفه ذو جدن فقهره الاحباش أيضا واقاموا باليمن تلك الايام

التاريخية الدالة على قيام ثلاث دول في اليمن وهي الدولة المعينية والدولة السبائية والدولة الحميرية ولا بد لنا من كلمة على كل منها

(الدولة المعينية) لم يتنبه علماء التاريخ الى هذه الدولة الاحديثا ولم يكن لها ذكر في تواريخ العرب انفسهم. وما نهبهم اليها الا ورود ذكرها في كلام المؤرخ اليوناني استرابون وقد ذكرهم غيره من المؤرخين القدماء كبليسيوس وذيونيسيوس وبطليموس فكان العلماء يظنون ان المعينيين هم المناثيون نسبة الى منى بقرب مكة ولكن المستعرب هاليفي لما ارتاد بلاد الحوف في شرق صنعاء اكتشف انقراض معين وقرأ اسمها عليها مكتوبا بالقلم المسند ووجد بجانبها براقش ونقل معه ثلاثمائة وثلاثة نقوش منها ٧٩ وجدت بمعين و ١٥٤ وجدت ببراقش و ٧٠ وجدت بالسوداء فقرأ المستعرب المذكور اسماء الكثيرين من ملوك الدولة المعينية ووقف على كثير من نظامها. وقد بلغ عدد من عثر على اسماءهم من ملوك معين ٢٦ يشترك كل عدد منهم في اسم و يتميزون باللقاب فمنهم (اب يدع) يثيع اى المنقذ و (أب يدع) ريام اى السامى

وقد ثبت ان سلطان هذه الدولة امتد الى شواطئ البحر الابيض المتوسط - ط وشواطئ خليج العجم وبحر العرب اى انها استولت على جميع شبه جزيرة العرب وكانت دولة تجارة وسلام لا فتح ولا حرب

والظاهر ان اصل هذه الدولة قبيلة من عرب العراق الذين اسسوا دولة جمهوراني في بابل فلما بادت دولتهم هنالك نزحوا الى اليمن وأسسوا فيها الدولة المعينية

(الدولة السبائية) دولة سبأ قحطانية ويسمون بالعرب المتعربة ولكن المؤرخين من العرب أغفلوا ذكر اصل هذه الدولة والذي عرف الآن ان هذه الدولة تأسست في القرن الثامن قبل الميلاد بعد الدولة المعينية وقد بلغ عدد من عرفت اسماءهم من ملوك هذه الدولة اكثر من ثلاثين ملكا استدلو عليهم من النقوش الاثرية وقد كانت دولة سلام وتجارة وقد دفعت الجزية للشوريين ويظهر من النقوش ان هذه الدولة صارت على اربعة ادوار تتميز باللقاب ملوكها فكان ملكهم في الدور الاول يلقب بـ (مكرب سبأ) وكان في الدور الثاني يلقب بـ (ملك سبأ) وفي الدور الثالث

(بمكرب سبا وريدان) وفي الدور الرابع (بمكرب سبا وريدان وحضر موت وغيرها)
يرجح ان هذه الدولة وجدت سنة ٨٥٠ و زالت سنة ١١٥ قبل الميلاد

(دولة حمير) الحميريون فرع من السبأيين وحمير عند العرب هو ابن سبا ويظهر أن
الحميريين كانوا يقيمون في ريدان قبل توليتهم بمدة قرون فلما سنحت لهم الفرصة
اخضعوا اخوانهم السبأيين ثم اشركوهم معهم فصار ملكهم يدعي (ملك سبا وذور ريدان)
كان آخر ملوك حمير ذانواس سنة ٥٢٥ ميلادية فكان مدة بقاء الدولة السبائية
٦٤٠ سنة

(فتح الاحباش لليمن) العلاقة بين اليمن والحبشة كانت موجودة من القدم
لقرب البلدين وقد طمع بعض ملوك الحبشة في الاستيلاء على اليمن فروى ان
احدم حاول امتلاكها في اوائل القرن الثاني للميلاد وان واحداً آخر ملك بعض
مدنها في اواخر القرن الثالث فطرده الحميريون. ثم عاد الاحباش في منتصف القرن
الرابع فاكثسحوا اليمن كلها فحدثت بينهم وبين العرب وقائم كثيرة ولا سيما بين ملك
الحبشة العلي اسكندى وبين الهدهاد ملك حمير ثم بين العلي عميدة وبين الهدهاد
وبلقيس. ثم تم للاحباش فتح اليمن بمساعدة الرومان ومكثوا بها الى سنة ٣٧٤
ميلادية ثم استردها الحميريون الى سنة ٥٢٥ حيث اعاد الاحباش عليها الكرة وملكوها
ثانية فحدث في هذه المدة ما حدث من ابرهة ابن الاشرم الذي تصدى لهدم الكعبة
ثم مل الحميريون سلطة الاحباش فذهب احد امراءهم واسمه سيف بن ذى يزن
الى الفرس واستنجد بهم فانجدوه بجيش قهر به الاحباش ف وقعت اليمن تحت سيادة
الفرس الى أن فتحها المسلمون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

(مدنية العرب في اليمن) تبين القارىء مما تقدم ان اهل اليمن لم يقلوا عن اهل
مصر وفنيقية مدنية في العصور القديمة اذ كان منهم الملوك الفاتحون والتجار المتنقلون
وكان لديهم مدن عامرة وآثار جميلة ويظهر انهم اقتبسوا ذلك من البابليين أولاً على
عهد دولة حمورابي التي أغارت عليهم قبل نحو أربعة آلاف عام وقد عثر الباحثون على
آثار قصورهم واطلال معايدهم وقطم من سكنهم (اي نقودهم)
وقد عرف ايضا انه كانت لهم تجارة واسعة في انواع البخور والطيوب والصمغ

وروى انهم كانوا يفلحون الارض ويستثمرونها وكانوا يستخرجون المعادن من باطن الارض كالذهب والفضة والاحجار الكريمة . وكانت لهم قصور شاهقة كقصر غمدان وقصر ناعط وقصر ريذة وقصر صرواح . هذا غير القلاع والسدود والجسور

(الدول القحطانية الاخرى) كان عرب اليمن كثيرا ما ينزحون من بلادهم عند نزول الشدائد بهم فينزلون الحجاز او اليمامة او البحرين او عمان . وقد تيسر لبعضهم انشاء دول في بعض تلك الجهات . وقد عد العرب من دولهم الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق وكندة بنجد

وقد اعتبر العرب تسم عشرة قبيلة خارج اليمن من بني قحطان اى يمنية غير عدمانية وهي : قبائل طي والاشعر وبجيلة وجذام والازد وعاملة وكندة ولخم ومذحج وهمدان ومازن وغسان وعدنان ومزيقيا وازدشنوة والاوز والخزرج وخزاعة . ولكل من هذه القبائل بطون وانحاذ وعمائر وعشائر لا سبيل لحصرها هنا وقد نشأت من بعضها وهي غسان ولخم وكندة دول سيرد ذكرها

وقد اتفق العلماء على ان هذه القبائل كلها قحطانية وانهم خرجوا من اليمن بعد انهدام سد مارب على اثر سيل العرم . وانا لذا اكون موجزاً من تاريخ كل دولة من هذه الدول الثلاث المار ذكرها

(دولة الغساسنة)

قلنا ان بني غسان هاجروا من اليمن لتهدم سد مارب بسيل العرم فنزلوا مشارف الشام وداربوا بها قوما من قضاة يقال لهم الضجاعة واخذوا ما بأيديهم وأسسوا هنالك دولة تحت حماية الرومان في الجهة التي تعرف الآن باسم البلقاء وحوران فبلغوا درجة عالية من المدنية يقول بحاثو الغرب ان عدد ملوك الغساسنة لا يتجاوز العشرة وان اولهم جبلة بن شمر وآخرهم جبلة بن الاهيم الذي قهره المسلمون واخذوا بلاده

امتد ملك الغساسنة حتي عم مشارف الشام وتدمر وفلسطين ولبنان وبني ملوكهم القصور الفخمة والقناطر الضخمة . من قصورهم المشهورة القصر الابيض وقصر المشتى

وقصر الفضاء وقصر السويداء وقصر ابن وغيرها

(دولة اللخمين في العراق)

اول من حكم العراق آل تنوخ ومنهم جذيمة الابرش ثم صار الحكم بعده الى ابن اخيه عمرو بن عدى وهو من آل نصر فرع من لخم . وقعت دولة اللخمين تحت سلطة الفرس كما كانت قد وقعت دولة الغساسنة تحت سلطة الرومان و يطلق العرب على ملوكهم اسم ملوك الحيرة

كان أول ملوك الحيرة عمرو بن عدى كما قدمنا وآخرهم المنذر المغرور . وكانت عاصمتهم مدينة الحيرة وهي على نحو ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يقال له النجف على الساحل الغربي للفرات وكانت آهلة بالقصور والمباني العظيمة والحدائق الغناء وبقيت الحيرة عامرة في الاسلام بضعة قرون . وكان بجوارها القصران المشهوران وهما الخورنق والسدير

❖ (دولة كندة) ❖

كندة بطن من كهلان فهم قحطانيون ، اصلهم من البحرين والمشقر هاجروا الى حضرموت فاقاموا ببلدة اسمها كندة فكانوا هنالك مواليين للحميرين فاتفق ان حجير بن عمرو آكل المرار سيد كندة كان اخا حسان بن تبع ملك حمير من امه فولاه قبائل معد كلها

تأسست هذه الدولة في القرن الخامس وانقرضت وفاة امرئ القيس سنة ٥٦٠

❖ تاريخ العرب العدنانية ❖

العرب العدنانية هم ذرية اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ، وذلك ان ابراهيم هاجر بامرأته هاجر وابنها اسماعيل الى بلاد العرب فاسكنهما بمكة وبنى البيت الحرام ثم عاد الى الشام فلما كبر اسماعيل تزوج بامرأة من بني جرهم أصحاب مكة في ذلك العهد قيل فولدت له اثني عشر واداً فتناسلوا حتي بلغ عددهم الملايين وكانت العرب تسميهم الاسماعيلية والعدنانية ايضاً نسبة الى عدنان جد ذرية اسماعيل والفرق بين العرب العدنانية والعرب القحطانية ينحصر في النظام الاجتماعي

وفي الدين واللغة

فمن الوجهة الاجتماعية يمتاز العرب العدنانية عن القحطانية بان جمهورهم أهل بدو ولا يسكنون الخيام ويربون الماشية ويرحلون وراء المياه والاعشاب فهم لا يبنون بيوتا ولا يؤسسون امصارا الا اهل مكة فانهم تحضروا منهم

ومن الوجهة الدينية يمتاز القحطانيون بان آلهتهم تقرب من آلهة البابليين منها عشتاروايل وبعل الخ ولكن آلهة العدنانيين كانت لا تشترك مع سواها ولها أسماء خاصة كاللات والعزى ومناة وهبل

ومن الوجهة اللغوية يوجد بين الطائفتين خلاف جوهري وان كان الجميع يتكلمون العربية والخلاف يتناول الاعداد والضمائر والاشتقاق والتصرف كان هؤلاء العرب العدنانية على حالة قبائل وكان لهم ماشية كثيرة وتجارة وكان مقامهم في تهامة والحجاز ونجد على حالة بدو الا قريشا فقد تحضرت وسكنت مدينة مكة

ثم ان هذه القبائل نزحت من بلادها لطلب العيش فانشأ بعضهم ادولا وضاع ذكر البعض الا آخر

فكان اول من نزح بني قضاة فتنفرت بطونها من جزيرة العرب في نجد والبحرين ومشارف الشام فانشأ بعضها دولا بالعراق والشام وكان نزوح هذه القبيلة حوالي القرن الاول للميلاد

(دول قضاة)

من بطون قضاة (جهينة وبلي) وكانت منازلهم بين ينبع ويثرب ومصر على شواطئ البحر الاحمر ولم تكن لهم دول ذات ملوك ولكنهم غلبوا على بادية مصر وصعيدا اجيالا ومن دول قضاة (تنوخ) وهو فرع كبير من قضاة . وقال بعض المؤرخين ان تنوخا كانت مزيجا من قضاة والازد وكانت دولتهم في اوائل ظهور النصرانية كان لتنوخ دول في مشارف الشام والعراق منها دولة جذيمة الارش كانت عاصمتها في المضيرة بين بلاد الحانوقة وقرقيسيا . ويرى المؤرخون ان هذه الدولة كانت في نحو القرن الثالث من الميلاد

لم تطل ايام هذه الدولة فحل محلها بطن آخر من قضاة اسمه سليح

(دولة سليح)

سليح بطن من قضاة مالكو مشارف الشام بعد تنوخ وكان مقرهم في مواب من ارض البلقاء وفي سلمية وحوارين والزيتون . ومن مالوكها النعمان بن عمر ومالك بن النعمان وعمر وابنه ثم خلفهم الغساسنة كما مر والاولون هم الضجاعة الذين ذكرنا ان الغساسنة تغلبوا عليهم

(انمار)

انمار بطن من قضاة رحلت الى جبال السروات فلما كوها ثم تخاصمت هنالك القبيلتان المكونتان لانمار وهي بحيلة وختم فحدث بينهما حروب يطول بسطها

(اباد)

اياد بطن من قضاة نازعتها مضر الحياة فنزحت من تهامة الى العراق قرب الكوفة ثم انهم شنوا الغارة على الفرس فوقع بهم كسرى انوشروان وأجلام عن العراق فنزلوا الى تكريت والجزيرة والموصل ثم نزحوا منها الى بلاد الرومان والشام

(ربيعة)

هاجرت ربيعة من تهامة فنزحت قبيلة عبد القيس منها الى البحرين وهجر ونزلت قبائل اخرى منها الى نجد والحجاز واليمن . وكانت القبائل التي نزلت الحجاز منها بكر وتغلب وعذرة وضبيعة . ثم حدثت بينهم حروب فتغلبت بكر على تغلب فتفرقت تغلب في البلاد وانتشرت بكر ابن وائل وعذرة وضبيعة بالهامة الى سواد العراق . وانحازت النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وعانات . وكانت الزعامة لعذرة ثم تحولت الى عبد القيس ثم الى النمر ابن قاسط ثم الى بكر بن وائل ثم الى تغلب فتولي منها وائل بن ربيعة وهو كليب المشهور

(مضر)

استأثرت مضر بتهامة حتي كثر عددها فوقعت بين بطونها الحروب واشهر تلك البطون قيس بن عيلان وخندف فتغلبت الثانية فظعن قيس بن عيلان الى نجد الا

قبائل منها انحازت الى اطراف الغور من تهامة فنزلت هوازن ما بين غور تهامة الى ما
والي ييشة وبركا وناحية السراة والطائف وذى المجاز وحنين واوطاس
وكان بنو خندف يتألفون من قبيلتي طابخة ومدركة فنزلت طابخة بطواهر نجد
والحجاز وأوت مزينة الى جبال رضوى وما والاها بالحجاز ورحلت تميم وضبة الى
منازل بكر وتغلب . وهاجرت بنو سعد الى يبرين ونزلت طائفة الي عمان واخرى
بين اطراف البحرين الى مايلي البصرة

واقامت قبيلة مدركة بتهامة . وكانت لهذيل بنو فهم وعدوان من قيس عيلان .
واقام بنو النضر بن كنانة حول مكة انزلهم قصي بن كلاب الحرم وهم قریش فـسـكان
بالحجاز من العرب اسد وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل
وخنم وسلول وهلال وکلاب وطيء وأسد وجهينة وغيرها

ذكرنا عرضاً في هذه الفذلكة عند ذكر استعمار الحبشة لليمن ما حدث من اعتزام
عامله ابرهة على صرف الناس عن حج البيت الي حج كنيسته بناها بصنعاء . وتفصيل
هذا الاجمال هو أن ابرهة لما هم بذلك واخذ له اهبتة جاء رجل من العرب فأهان تلك
الكنيسة ، فهاج ذلك غضب ابرهة فعزم ان يثأر لبيعته بهدم الكعبة . فجهز لذلك
جيشا وسار على رأسه قاصداً مكة وما زال يطوى المفاوز والمواى حتي وصل الي
ضواحي مكة واستاق من اموالها ابلا لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت
قریش قد اخلت البلدة ولجأت الي الشعاب تاركة البيت الحرام وما فيه من اصنامها
ونصبها لرحمة المغير الحاقد . وهناك اصاب جيشه حادث اضطره للاسراع بالرجوع .
فعاد وقد بادا كثير عسكره ، ولم يقض مما اراده وطراً . في هذه السنة ولد النبي صلى
الله عليه وسلم فكانت هذه الغارة قبل بعثته باربعين سنة

هذا موجز من تاريخ العرب مقتبس من ابحاث العلماء الغربيين الذين عُنوا بدرس
الاتار العربية ، وأغروا بتحرير تاريخ هذه الامة على نور ما هُـدوا اليه من المعالم
التاريخية والاتار العمرانية

مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين في العرب

بقول حضرته ان الشعر المسمي بالجاهلي لا يمثل حياة الامة العربية قبل البعثة
المحمدية . ونحن لا يسعنا الا موافقة الاستاذ على ذلك . فاننا نرى كما رأى النّقدة
الاقدمون ونقلناه عنهم في الفصل الاول من هذا الكتاب ان هذا الشعر الذي بين
ايدينا اكثره مخلق وضعه الوضعاءون في القرن الاسلامي الاول والثاني والثالث كما
وضعوا مئات الالوف من الاحاديث ونسبوها للنبي صلى الله عليه وسلم وكما وضعوا
خطبا لا تحصى وكلمات مأثورة لا تحصر على كبار الصحابة والتابعين والملوك والقادة
من جميع الاجناس والنحل . ولئن كان الرواة الاولون قد حفظوا عن الجاهليين شعراً
صحيحاً فتما هم قد تحروا منه مالا يصادم الاسلام تأثماً من نقل اخبار المشركين واذاعة
ضلالاتهم الاعتقادية . وقد ثبت ان العرب الاسلاميين في ابان نهضتهم قد تخرجوا
من ترجمة الالياذة المنسوبة لهـ وميروس الشاعر اليوناني القديم وكان ذلك كما
يقول العلامة درابر Draper في كتابه المنازعات بين العلم والدين
Les conflits de la science et de la religion تخرجوا من ذكر الالهة
اليونانيين ، وتعظيم ابطالهم الممتازين . فلا غرو ان يهمل الرواة حفظ القصائد
الدينية التي قالها العرب وفيها ما فيها من ذكر الاصنام والخرافات التي لا تخف على
سمع من كان يعنون بالشعر في تلك الايام

ويقول الدكتور طه حسين : « ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية ، واصح
تمثيلاً لها من الشعر المسمي بالجاهلي »

ونحن نوافقه على ذلك من وجه ونحالفه من وجه آخر . اما ان القرآن يعتبر اصقل
مرآة لما كان عليه عرب الجاهلية من النقائص الخلقية والعيوب الاجتماعية ، والمنكرات
العادية فنسبهم . لان القرآن قد عرض عقائد ودافع عنها ، وعرض عقلية الجاهليين

وسخر منها ، وعرض اعتراضاتهم على دعوته ودحضها ، وعرض تفصيلات جمّة عن احوالهم الاجتماعية ، وعاداتهم الزوجية ، ومألوقاتهم البيتية ، ومنازعاتهم السياسية والاقتصادية وشنع عليها وعابها ، ولم يدع كبيرة ولا صغيرة من اخلاقهم الرديئة ومعاملاتهم المعيبة الا اتى عليها وازرى عليها وتهكم بها ، واستنزل سخط العقلاء عليها ، فهو يمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسياتهم تمثيلا لا يدانيه فيه شعر ولا تاريخ . وكيف لا يكون كذلك وهو انما جاء لنقلهم مما هم عليه الى حال ارقى منه درجات ، وتهيئتهم لان يحيا حياة صالحة تأخذهم الى معارج الارتقاء ، وتحفزهم الى تخطي دوائر الجور التي كانوا فيها ولا يبغيون عنها تحولا ، ولا يتخيّلون وراءها مذهبا . وهل يتأتى له ذلك الا بالدخول في صميم شؤونهم الحيوية ، وحكاية مآلهم عليه من المنكرات الاجتماعية ، ثم الكر عليها بالتقبيح والتهجين ، او بالتعديل والتقويم ونخالف الدكتور طه حسين من وجه كفاية القرآن وحده في تجلية ما كان عليه العرب من الصفات المحمودة ، وليس له ان يعرض لذلك وهو في مقام دعوتهم الى دين يقلب وجودهم الاجتماعي رأسا على عقب ، ويهدم مآلهم عليه من اساسه ، ويقم على انقاضه صرحا جديدا لحياة جديدة لم يعرفوها الى ذلك الحين

(فتكون النتيجة اللازمة لمذهب الدكتور طه حسين اننا نبقى جاهليين بما كان عليه عرب الجاهلية من الكرم الذي ضربت به الامثال وبلغ حد التضحية بالنفس ، وحفظ الجوار الذي لم يؤثر مثله عن غيرهم ، وللشجاعة واثاب الضيم وحب الحرية والصبر على المكاره والتجدة والصدق في القول والذكاء وهي الصفات التي يجلبها الشعر المدعو بالجاهلي في حدودها البدوية كل التجلية . فهذا الشعر لا يمكن الاستغناء عنه في بناء تاريخ العرب الجاهليين ولا يكفي القرآن وحده في ذلك . وما دام الشعر المنسوب لهم ، وفيه الخلق والصحيح . قد اجمع على نسبة هذه الصفات لهم فيمكن الاعتماد عليه في تكميل بناء تاريخهم . والافنكون قد حكمنا بعدم امكان الوصول الى هذا التاريخ على الاطلاق

فلننظر الآن فيما يقوله الدكتور طه حسين من ان القرآن يمثل لنا في عرب

الجاهلية حياة دينية قوية ، وقدرة على الخصام والجدال ، وانهم كانوا اصحاب علم وذكاء وعواطف رقيقة ، وعيش فيه لين ونعمة ، وانهم كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وشيعا ، وكانوا يعنون بسياسة امتي الفرس والروم ، وعلى اتصال اقتصادي بغيرهم من الامم ، وانهم تجاوزوا باب المندب الي بلاد الحبشة ، وتجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ، وتجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر ، وانهم كانوا متأثرين بالسياسة العامة ومؤثرين فيها ، وبذلك فقد كانوا امة متحضرة راقية لامة جاهلة همجية . ثم قال وكيف يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد ظهر في امة جاهلة همجية ؟

نقول اننا لانرى رأى الاستاذ في كل هذه الاطلاقات ونوجز رأينا في
الفصول الآتية :

هل كان للعرب الجاهليين حياة دينية قوية

وحياة عقلية قوية ؟

لا جدال في ان العرب كانوا قبل البعثة المحمدية على دين هو الوثنية على اخس اشكالها لا كوثنية اليونان ذات الميتولوجيا المتأنقة في الخيال ، ولا كوثنية المصريين والهنود والصينيين الثرية في الاصول الداعية الى تطهير النفس ، والتجرد من عالم المادة والتغلغل في الحياة الروحية بفرض الرياضات ، وايجاب العبادات . وقد دفعت الاديان الوثنية اصحابها الي كثير من العلوم والفنون فعبادة الكواكب جعلت من الكلدانيين اول المستكشفين لمساير القبة الزرقاء واول الضابطيين لحركات الاجرام العلوية ، وعبادة الطبيعة في قواها المتعددة حفزت اليونانيين للنظر في عوالمها وتقليد صنائعها فوصلوا الي غايات بعيدة في فنون النقش والنحت والتصوير ، ودفعت بفريق آخر منها الي باحات الفلسفة والعلوم . ^ووقل مثل ذلك عن الهنود والصينيين والمصريين الاقدمين . اما العرب فكانت وثنيتهم ساذجة مبهمه قليلة السلطان على عقولهم لم تدفعهم لاي صناعة من الصناعات التي يدفع اليها التدين ، ولو لا اصنام كانوا اقاموها في مكة يحجون اليها في كل عام مرة لساغ عدمهم من الامم المجردة من العاطفة الدينية

يقول الدكتور ان الامة العربية كانت قوية في دينها . ونحن نقول أسمعنا ان امة تكون قوية في دينها ، وليس لها هيئة كهنوتية ، ولا اساطير دينية ، ولا مغا بد محمية ، ولا كتاب يرجع اليه في شؤونها العبادية ، وتهتدى بهديه في امورها التعاملية ؟ أ كان للعرب من مظاهر التدين الا انهم كانوا يحجون البيت الحرام بـ مكة كل عام مرة ثم تعود كل قبيلة الى محلتها لا تربطها مع جاراتها رابطة ملية ، ولا تجمعها واياها عاطمة روحية ، حتي انه لما اعترم ابرهة عامل ملك الحبشة على اليمن هدم الكعبة وصمد اليها على رأس جيش لتنفيذ هذه العزيمة ، كان كل ماعمله العرب لدرء الخطر عن البيت الذي يحترمون ان لزمت كل قبيلة مكانها ، ماضية في شأنها من الاغارة على جيرانها وسلب اموالها وسبي نساءها ، وتركت جيش ابرهة ينحترق صحاريها ومعابها آمنة مطمئنا . وكان كل مافعله قريش التي كانت تتولى سدانة الكعبة ان فرت من وجه المغير بن نساءها واولادها وماشيها معتصمة بشعاب الجبال تاركة تحت رحمة آلهتها وكعبتها يفعل بها ما يبدوله . فلو كان لهذه الامة غيرة على دينها وهي امة حربية بطبيعتها ، أما كانت تداعت لحماية اصنامها وانصابها ، فتدفقت سيول فرسانها من كل حذب والتفت حول حرمها تدافع عنه المعتدين عليه وتستमित في الزيادة عنه ولو فنت دونه ؟

اما ولم تفعل ما كانت تفعله كل امة تغار على كرامتها الدينية فلا نستطيع ان نوافق الدكتور طه حسين على انها كانت ذات نزعة دينية قوية . بل نستطيع ان نقول انها كانت قليلة الغيرة على دينها الى درجة معينة

يعتمد الدكتور طه حسين على القرآن نفسه في التدليل على ان العرب كانوا ذوى حياة دينية قوية ، يستنتج ذلك من تشددهم في رفض الدين الجديد وثباتهم على دينهم الموروث ، وذهابهم في الاستعصاء على الدعوة كل مذهب حتي اداهم ذلك الى الحرب الضروس . ولو كان تأمل قليلا في نفسية العرب الجاهليين لرأى هذا الاستعصاء منهم كان حالة اشتركت في احداثها بضعة عوامل تعتبر من مميزات الامة العربية في جاهليتها . وبما ان الدكتور طه حسين لا يعتد في بناء تاريخ الجاهلية الا بالقرآن فنحن سنسرد هذه العوامل واحداً واحداً مستندين الى نص القرآن نفسه ، فاليك :

(اول هذه العوامل) ضعف العاطفة الدينية عندهم . واجلى مظهر لهذا الانضعف انهم لم يكونوا على امر جامع من عقائدهم شأن الذين لا عراقة لهم في الدين . فقد كان بعضهم دهريا لا يعتقد بوجود الله ، وبعضهم لم يكونوا يعتقدون بالبعث بعد الموت . ومنهم من كانوا يعبدون الكواكب . ومنهم من كانوا يعبدون الملائكة . ومنهم من كانوا يعبدون الاصنام ويعتقدون انها شفعاؤهم عند الله .

فهل يعقل ان تكون امة على مثل هذا الخبط من امر دينها ، لا تجمعها جامعة ، ولا ترجع في عبادتها الى اصل مدون ، وليس لها في تلك العصور هيئة متميزة تهيمن على عقائدها ، وتكون مع هذا كله قوية في دينها ؟ واذا ثبت ضعف العاطفة الديانة عندها من هذا الطريق فلا عجب ان يلاقى كل دين جديد من تلكؤها في قبوله مالاقي الاسلام في اول امره منها

(ثاني هذه العوامل) افراط العرب في الفخر بابائهم ، والتباهي بمناقبهم وما آثرهم فقد لا تصادف في امم الارض قديما وحديثا من يشاكلهم في هذه الخصلة ، فكان يصعب عليهم ان يسجلوا على اولئك الآباء ، بقبولهم الدين الجديد ، انهم كانوا على ضلال مبين

(ثالث هذه العوامل) جهودهم على ما كان عليه آباؤهم بغير تعقل ولا اعمال روية . وقد حكي عنهم القرآن ذلك فقال : « انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم بهرعون » « قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون » « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا انما نتبع ما وجدنا عليه آباءنا »

(رابع هذه العوامل) محي الدين من طريق محمد بن عبد الله وهو وان كان من ذؤابة قریش نسباً وحسباً الا انه لم يكن من المؤسرين المستكثرين ، ولا من زعمائهم المتصدرين . وقد اشار الى ذلك القرآن في قوله تعالى : « وقالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » المراد بالقريتين مكة والطائف . ومؤدى هذه الآية انه لو كان قام بالدعوة الى الاسلام احد هؤلاء الزعماء لا تبعوه . وقد صرح القرآن بانهم كانوا يقلدون رؤساءهم بلا روية ولا تفكير ونعي ذلك عليهم في صورة حكاية ماسيقولونه يوم يعرضون على العذاب في الحياة الآخرة : « وقالوا ربنا اننا اطعنا سادتنا

وكبراءنا فاضلونا السبيل»

فاشترك هذه العوامل الاربعة يكفي في تعليل استعصائهم على الدعوة الاسلامية
بادي ذي بدء

على ان القرآن قد صرح ان العرب كانوا لا يعباون بالدين لقولهم «اذا كنا ترابا
واَبَاؤُنَا، انا لَنُخْرِجُون؟ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ اِنْ هَذَا اِلَّا اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ»
وقال: «وما كان دعاؤهم عند البيت الا مكاء وتصدية» اي وما كانت عبادتهم
في البيت الحرام الا صغيراً وتصفيقا. وقال: «ان هؤلاء ليقولون اذا متنا وكنا ترابا
وعظاما انا لَمِيعُون؟ اَوِ آبَاؤُنَا الْاَوَّلُونَ؟ قُلْ اِنْ الْاَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ اِلَى
مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ»

ولو كان حقا ما يقوله الدكتور طه حسين من ان ذلك الاستعصاء الذي قابل به
العرب الدعوة الاسلامية كان ثمرة قوتهم في دينهم لكان جداهم مع النبي صلى الله
عليه وسلم أخذ شكلاً يشعرون بانهم على عقائد مقررة، واصول محددة على مثال الجدال
الذي كان يقوم به اليهود، فقد كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في امور
ويجيبهم عنها ويحاكمهم الى كتابهم اذا انكروها، ولكن عرب الجاهلية قابلوا
الدعوة الاسلامية بسلاح العاجز وهو قولهم انهم لا يستطيعون ان يتخلوا عن دين آباءهم
الاولين: وكل ما فعلوه بعد ذلك انهم كانوا يتعجبون من التوحيد فقالوا كما حكاه عنهم
القرآن: «أَجْمَلُ الْاَلْهَةِ اِلَهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب. وانطلق الملائكة منهم ان
امشوا واصبروا على آلهتهم ان هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا
الاختلاق»

ولا يخفى ان التعجب من وحدانية الله لا يدل على شيء من الذكاء، والتواصي
بالصبر على آلهتهم لا يتجاوز المقاومة السلبية، مقاومة الجهلة الاغبياء. وتصريحهم
بانهم لم يسمعوا بهذا التوحيد في الملة الاخرة يدل على سذاجة لا يعذرون عليها
على اية حال

وقد استنفذ القرآن كل انواع البيان في اقناعهم فلم يظفر بطائل فاخذ يسألهم: أَلَمْ يَكُنْ
كِتَابٌ فِيهِ تَدْرِيسُونَ، أَعَنْدَكُمْ اُنْثَارَةٌ مِنْ عِلْمِ عَنْهَا تُصْنَدُونَ، أَلَمْ يَكُنْ عَقُولُ بِهَا تَمَيِّزُونَ

وعلى حكمها تنزلون ؟

فلما أعيامهم أصرهم ، واستعصى على علاجه جمودهم قرر انهم كالانعام بل أخط من الانعام فقال : « أم تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ، انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » . وقال : « لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ، انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا »

فاين بعد هذا ما يستخرجه الدكتور طه حسين من القرآن من قوة حياتهم الدينية والعقلية ، وسمو قدرتهم اجدلية والمنطقية ، وعلو كعبهم في الشؤون العلمية ؟ لعله عرض ما ذكره القرآن من تعنتهم في طلب الآيات فعده من فرط ذكائهم ، وقوة ادراكهم ، ونحن نعرض عليك ماورد في القرآن من ذلك لنرى هل يدل على ذكاء أم غباء ، فإليك :

قال الله تعالى : « وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تَفْجيرا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، او تأتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه »

« وقالوا نوما تأتينا بالملائكة ان كنت لمن الصادقين »

« وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »

« وقالوا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأتم تبصرون »

« بل قالوا اضغات احلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما ارسل

الاولون »

« ام يقولون افتراه ، قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا ، هو اعلم بما تفيضون

فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الي ، وما انا الا نذير مبين »

« ويقولون انا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »

« ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وان يوما عند ربك كالف سنة
مما تعدون »

« ام يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون »
« وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لنرى
خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا ام به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب
والضلال البعيد »

« وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك
ورتلناه ترتيلا . وما يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً »
« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان
يعبد آباؤكم . وقالوا ما هذا الا إفك مفترى . وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا
الا سحر مبين . وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير .
وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلهم فكيف كان نكير »
« وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت
من الصادقين . وما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا منظرين »
« وقالوا قلوا بنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب
فاعمل انا عاملون »

« واذا قيل لهم تعالوا الي ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه
آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون »
« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغابون »
« ام يقولون نحن جميعا منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر »

هذه صورة كاملة من الآيات التي وردت في القرآن فيما يتصل بالجدال الذي
وقع بين عرب الجاهلية ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يؤخذ منها انهم كانوا على
شيء من الذكاء والعلم والقدرة على الخصام ، بل يتبين منها انهم كانوا على نقیض
ذلك كله . فان كل ما طلبوه ان يخرج لهم النبي صلى الله عليه وسلم العادة بعين ماء

يفجرها ، او بجنة تكون له فيا كل منها ، او ببیت يُعطاه من الذهب فياوى اليه ، او يطير الى السماء ويا تيهم بكتاب منها يقرأونه ، او يأتهم بالله وملائكته ليروه باعينهم ، او يسقط السماء عليهم قطعا قطعا فيهلكهم ، وهذا كله بالهزل اشبه منه بالجد ، ولا يدل على شيء من الفطنة والفهم ، بل هو نوع من الهذيان يقدر عليه حتي الاطفال . اما الذي يدل على الصفات التي نحلهم اياها الدكتور طه حسين فهو قرع الحججة بالحجة ومقابلة البيان بما يبطل سحره ، ويلاشي سخفه ، والاستشكال على اقوال النبي وافعاله بشبه يحار فيها العقل ، ويضيق عنها الوسع

زعموا ان القرآن مفترى فتحداهم بأن يأتوا بسورة مفتراة من مثله فعجزوا . « فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »

فما هي القيمة العلمية والجدلية لقوم يصيحون بأن هذا القرآن مفترى ثم يعجزون
عن تأليف سورة من كلام يشبهه ؟

كان كل ما فعلوه ازاء هذا التحدي الخزي ان تداعوا الي اللغو والنهويش حين يُتلى عليهم القرآن ليبطلوا تأثيره فيهم وفي غيرهم فقال الله فيهم . « وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

فهل هذا فعل قوم يوصفون بالذكاء والعلم والقدرة على الجدل ؟ وهل عهد في تاريخ المناظرات ان يستعين الخصم باللغة والنموضاء حين يدلي الخصم بحجته ليبطلها بهذا النحو من العبث الذي لا يصدر الا من الغوغاء ؟

هنا نسأل انفسنا اذا كانت الحالة العقلية والنفسية للعرب كانت على ما وصفه القرآن من الاحطاط والسقوط فكيف يمكن تفسير اقامتهم لحكومة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة امكنها ان تلم شعثهم ، وتجمع شتاتهم وتحافظ على وحدتهم ، وتدفهم لدحر الامتين العظيمتين اللتين حملوا نيرانها قرونا طويلة وهما الفرس والرومان فسحقت الاولى ومثلتها بجثمانها ، وهزمت الثانية وامتلخت الشام ومصر من برائنها ؟ هل كانت تكفي المدة التي لبثها النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهور انبيهم وهي ثلاث

وعشرون سنة لأن تخلقهم خلقا جديدا فيصيحوا قادرين على ما لم يكونوا يحملون به
 امام جاهليتهم؟ هب انه اوجد فيهم صلاحا وورعا وادبا فهل اوجد فيهم عقلا
 عمليا ومرانا حكوميا، واستعدادا للترقي وقدرة على تصريف الامور من
 قبيل الطفرة؟

يقول قائل: نعم ان هذه المدة تكفي لأن تتمكن روح عالية كروح النبي صلى
 الله عليه وسلم من قلوبهم من حال الى حال يناقضها، وتعددهم لان يقوموا باعباء مملكة
 شاسعة الاطراف لم تنس لهم في اى عهد من عهودهم

نقول هذا سائغ من الوجهة الخيالية الشعرية ولكنه من الوجهة العملية لا ينقم
 غلة المنقب عن العلل الطبيعية، ولا ينطبق على السنن الاجتماعية. وحل هذا المشكل
 في نظرنا هو ما سنجمله في الاسطر التالية:

عرب الجاهلية وبخاصة في مكة والطائف وبثرب كانوا لا يختلط كثير منهم
 بالامم المجاورة لهم وترددهم على سورية ومصر وفارس ولا شغلهم بالتجارة والمعاضدات
 على شيء من الحياة المدنية اقتبسوها اختلاسا في رحلاتهم المتكررة وبمزاولة مهنتهم
 المحلية. ولكنهم كانوا في هذه المدن مقيمين على النظام البدوي المحض من الانقسام
 الى قبائل وبطون واتخاذ وفصائل واسر. فلم تكن لهم حكومة مركزية، ولا رئيس
 محدود السلطة، ولا شرطه، ولا محاكم، ولا شيء مما يميز الحكومة النظامية. وكانوا
يعيرون على جيرانهم ويغار عليهم كسائر العرب وكما ستبين ذلك في هذا الكتاب.

فلم يكن من فارق بينهم وبين اهل البادية الا ان هؤلاء كانوا يقيمون في دور مبنية
 بدل الخيام، وكان مرتزقهم من الاتجار وتربية الانعام. فلما ظهر النبي صلى الله عليه
 وسلم ودعا الناس سرا الى الاسلام تسارعت اليه العناصر الصالحة من هؤلاء الناس
 وقبلوا دعوته، وكنتموا امرهم عن الدهماء. فلما اُمر النبي باعلان الدعوة واخذ
 المشركون يضطهدونهم لصبوهم عن دين آبائهم صبروا معه صبرا استنفد كل ما في
 وسعهم من احتمال. ثم قرروا، وقد بلغ السيل الزبي، ان يهاجروا الى حيث يأمنون
 على انفسهم ودينهم من عنت المشركين فاختاروا ان تكون دار هجرتهم الحبشة. ولما
 شدد الكافرون النكير على رسول الله ومن بقي معه قرروا الهجرة الى المدينة بعد الاتفاق

مع اهلها سرا على ذلك . فقتلوا اليها تحت جنح الظلام ، ثم لحق بهم من كان قد ذهب الى الحبشة منهم ، فكان هؤلاء المهاجرون الاولون وهم صفوة قریش والعناصر الصالحة فيهم ، ومن انضم اليهم من اهل يثرب (المدينة) نواة لدولة جديدة كُتبت لها ان تنمو وتمتد وتحديث في العالم الانساني حدثا جللا لا يزال له نور يتألق الى اليوم

واتفق في ذلك الحين ان الدولتين اللتين كانتا تتنازعاں السلطان في الارض وهما دولتا الفرس والرومان آخذتين في الانحلال ، فبعد أن تحققت للعرب وحدة دينية وسياسية ، ودفعتها طبيعة الاجتماع المنظم للتبسط في الارض انتزعت سورية ومصر من الرومانيين ، وكان أهلهما ينتظرون فرجا من عسف المستعمرين ، ثم وجهوا وجوههم شطر فارس وكانت في حالة النزاع فهاهي الاضربتان حتي تفككت اوصالها ، وضاع وجودها ، وتبادر عقلاؤها لقبول الدين الجديد ، فانضم الى العرب بذلك عنصر عريق في المدنية كان له اثر كبير في حفظ وجود الدولة الاسلامية

هذا ولسنأمن يذهبون مذهب الذين يعدون عرب الجاهلية همجا متوحشين ، عارين من كل فضيلة ، وكاسين بكل رذيلة . بل نعتقد كما يعتقد الدكتور طه حسين بأنه كانت لهم حياة دينية وعقلية ، وانهم كانوا اذ كفاء بفطرتهم ، وبأنه كانت لهم عواطف ، وكان لبعضهم عيش فيه لين ونعمة ، وانهم كانوا على اتصال سياسي واقتصادي بمن حولهم من الامم جنى على الملاصقين منهم للامم المتقدمة الوقوع تحت نيرها ، وان اهل المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة

كل هذا صحيح من بعض الوجوه ، ولكنهم كانوا قبيل البعثة المحمدية وفي إبانها في دور تدهور وانحلال ، عقب دور اخذوا فيه حظهم من الحضارة والغلب والاستقلال . ولا أدل على ما نقول من ان جميع بلادهم المجاورة لدولتي الفرس والرومان والحبشة وقعت تحت نير هذه الامم حتي ان القبائل العدنانية الوسطى سكان الحجاز ونجد لم تنج من الخضوع لسلطان الاجنبي فقد كانوا تابعين لعرب اليمن الى اواخر القرن الخامس . وكان عرب اليمن تابعين اذ ذاك للاحباش . وأدل من هذا على

انهم كانوا في دور تدهور وانحلال ان دولتي الفرس والرومان كما نرى ان البعثة المحمدية وقبلها في دور انحطاط مريم ، فاستمرار الاقاليم العربية المجاورة لهما على حمل نيرهما وهما في هذا الدور من الدلائل المحسوسة على ان اهلها كانوا في حالة نفسية يقبلون معها كل اذلال يفرض عليهم

وليس أدل على تدهور وانحلال القبائل العدنانية في نجد والحجاز ايضا من تركهم جيش ابرهة عامل الحبشة يتوغل في بلادهم على عزم هدم الكعبة دون ان يلاقى اية مقاومة . اين هذا من غيرة اليونان حين اعترم (الملك اكسيركسيس) ملك الفرس في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح على اكتساح بلادهم فقاوموه شبرا شبرا حتي اصلوه في مضايق الترموبيل نار حرب طاحنة لم يجد معها مناصا من الارتداد على عقبه رغما عما كان معه من الجيوش الجرارة والعدد المجتاحة

وان تذكرت ان جواب قريش نفسها على تلك الغارة الحبشية كان تركها الكعبة وما فيها من آلهتها تحت رحمته ولياذاها بالشعاب دون ان يراق من رجالها قطرة دم علمت ان داء الانحلال كان قد سرى في جسد الامة العربية متحضرها ومتبديها سر يانا لم تعد معه تصلح لحماية حوزة، ولا للدفع عن كرامة

نعم قد كان لبعض العرب ذكاء وفهم، وعيش فيه لين ونعمة ، وان سكان المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة ، ولكنهم كانوا على حال من الانحلال الادبي والاجتماعي لا يرجي لهم معه قيام . فكانوا من الدين على وثنية منحطة خالية مما يموهها من المعابد الفخمة ، والهيكل الضخمة ، والسدنة الراقين ، والمرشدين الروحيين ، وكانت عبادتهم تنحصر في حج البيت والتصفيق والصفيق فيه . وكان لديهم السفاح ذائعا ، وشرب الخمر شائعا ، ولعب الميسر مباحا ، وتعدد الزوجات الي ما لا حد له سائعا ، وحرمان النساء من الميراث بل وراثتهن كما تورث الانعام والتحكم فيهن حقا مقررا ، واجبار فتياتهن على البغاء طمعا في اجورهن عملا محملا . وكانوا مع ذلك يدعون اليتيم ، ولا يتحاضون على طعام المسكين ، وياكلون الترات أكلا لما ، ويحبون المال حبا جما

كل هذا صرح به القرآن ، وشهد به عليهم ، وجبهم به على رؤس الاشهاد .

وهو ليس بشيء في جانب داء دوى سرى في دماهم ، واختلط بكيانهم ، واصبح
عنصرا من عناصر وجودهم ، واصلا من اصول طبيعتهم ، الا وهو داء الفرقة مع كل
ما يستتبعه من تناحر وتنازع ، وما يقتضيه من تناكر وتقاطع ، فكانت سيوفهم لا
تجف من دماهم ، ورماحهم لا تطهر من اشلائهم ، لا يجمعهم دين جامع ، ولا يلم
شعثهم غرض واحد . قال تعالى : «لوانفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله
ألف بينهم»

فاذا كنا لا يجوز لنا ان نعتمد على اقوال المؤرخين الاسلاميين فيما روه عن
عسف ملوك العرب المجاورين للفرس بالعراق ، وللرومان في حدود الشام ، وعن
انهمالك الناس هنالك على السفساف والذنيئات من الامور ، والقعود عن استرداد
استقلالهم ، وقناعتهم بحياة العبودية والذل . وفيما روه عن تناحر الاوس والخزرج
بيثرب ، وشغل اهل مكة باللهو بالقيان ، والعزف بالعيدان ، والفسوق والعصيان ،
قلنا اذا كان لا يجوز لنا الاعتماد على اقوال المؤرخين في ذلك لانهم لم يتحقروا الجاهلية
والجاهليين ، وتروى عنهم دعوة الاسلام والمسلمين ، فان الحوادث تشهد عليهم بذلك ،
فان هذه القبائل الكثيرة منهم قد ابشت قرونا قبل البعثة المحمدية في حالة جمود وخمود لم ينبغ
فيهم داع الى هداية ، ولا رادع عن غواية ، ولا مصالح يحاول لمشعثهم ، ووجه متفرقهم ،
وتوحيد كلمتهم ، ولا مشرع يجهد ان يضع لهم نظاما ، او يطلب لهم وئاما ، ولا
فيلسوف ينظر في الحقائق ، ويحاول ادراك الدقائق ، ولا طامع في ملك يعالج من
امرهم ما عالج الطامعون في الامر ، ويماني ما عاناه الساعون في بعث الهمم ، واحياء
الرمم ، ولا صانع حتى في عواصمهم المتحضرة يحسن نحت اصنامهم ، او بناء
معابدهم ، هذا والامم المتمدينة تحيط بهم من كل مكان ، والاتصال بينهم حاصل في
كل آن ، فماذا تستنتج من هذه الحالة الراكدة ، والحياة الهامدة ، الا انهم كانوا قد
استنفدوا كل ما في قدرتهم من اسباب البقاء ، ولم يبق لهم منها ما يبعثهم على الارتقاء ،
لمباراة الاحياء ؟

يقولون قد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في عهد كان العرب فيه يتحفزون
للنهوض ، ويتهيأون للوثوب ، وقد بحثنا في مبلغ هذا القول من الصحة فلم نجد له اثرا

يدل عليه ، بل وجدنا ان الجمود ، والتمسك بالقديم ، والاستقامة الى المألوف العتيق ، كان قد بلغ منهم حدا يكاد لا يوجد له شبيه في تاريخ الامم . فقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى توحيد الله وتنزيهه ، وترك ما هم عليه من الوثنية السافلة ، والعادات الساقطة ، ولم يترك وجها من وجوه التأثير عليهم الا آتى به على أكمل ما يكون ، فلم يلبه من اهل مكة الا عشرات من اهل الفهم والفتنة ، فرماهم مواطنوهم عن قوس ، واذاقوهم جميع الوان الازى ، فصبروا على هذا الاضطهاد صبر الكرام ، فلما فاض الاناء ، وطفح الكيل ، فروا بدينهم حيث يأمنون عليه في بلاد الحبشة ، وقضى رسول الله فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الخروج من الظلمات الى النور ، فلم يزحزهم ذلك عما هم فيه قيد شعرة . بل ظلوا يتهمونه بالكهانة تارة ، وبالسحر اخرى ، وبالشعر حيناً ، وبالجنون حيناً آخر ، حتي قيض الله له اهل المدينة وهم بنو الاوس وبنو الخزرج هاجروا الى يثرب بعد سيل العرم في القرن الثاني بعد الميلاد وكان يحيط بالمدينة يهود كثيرون ، فروا بدينهم من بطش الرومانيين ، فوقف منهم اولئك القحطانيون على ماهية الدين والتوحيد والنبوة فصاروا يعرفون عن كل هذه الامور شيئاً ، ويميلون ان ينالوا منها حظاً ، محاكاة لليهود ، وتخلصاً من تعييرهم اياهم بالوثنية التي كانوا عليها ، فاستعدوا ان لا ينفروا من التحول عن باطل الى حق يُدعون اليه ، ولا عن قبيح الى حسن يعرض عليهم ، ولا عن ركود الى حركة يندبون اليها . فلما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ، وقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، وآنسوا من ذلك حقاً ساطعاً ، وجمالا رائعاً ، لبوا نداءه ووعدوه بحماية دعوتهم ضد كل من يتصدى له مادامت فيهم بقية من حياة

فكانت هذه الطائفة ومن انضم اليهم من مهاجرة مكة حبر الزاوية في صرح الدولة الاسلامية التي نذبتها العناية الالهية لاحداث اكبر الحوادث العالمية وقلب الشؤون الارضية من حال الى حال آخر

واني اميل ايضا لان اجعل لطول الخصومة والحرب بين الاوس والخزرج دخلاً ايضا في تراميهم على الاسلام ليكون وسيلة سلام بين الفريقين دون ان يشعر طرف منهما بذلة المنهورة ، وان يتحمل غطسة الغالب الفخور

هذا ان ابينا ان نعتد في بحثنا هذا بغير العوامل الطبيعية والسنن الاجتماعية ،
ولكننا إن وسعنا قليلا من دائرة التعليل حتي شملت القوة المدبرة للأفراد والجماعات،
والمهيمنة على نظام الوجود والموجودات، ساع لنا ان نقول ان دخول الاوس والخزرج
في الاسلام لأول دعوة من رسول الله وتحمسهم له الى حد التضحية بالنفس دون
تأميل في اجر دنيوى يمكن ان يعتبر من الاستحالات الاجتماعية الفجائية ، على نحو
الاستحالات الفجائية الحيوية التي اثبت العالم الالمانى دوفر يس *De Vries* حصولها
بالتجربة في عالم النباتات والحيوانات ودحض بها مذهب دارون القائم على النشوء
الطبيعى ، والتطور التدريجى ، حتي قال العلامة البيولوجى لودانتك *LeDantee*
« لا اقول على مذهب دارون فحسب ، ولكن اقول على مذهب التطور السلام »

نعم يمكن ان تعتبر الاستحالة الفجائية التي دخل فيها الاوس والخزرج من ناحية
الدين من قبيل التدبير الالهى لاحداث ما يبتنى عليه من التطورات العالمية العظيمة ،
ولكننا نغفل هذا الاعتبار مادام يمكننا التعليل بالعوامل الاجتماعية حتي لا ندخل
في العلم المتفق على حدوده اصولا من طبيعة علوية لم تبلغها وسائله بعد

يلوح من هذا لاول وهلة ان العرب لو كانوا على وشك نهضة لما صادفت دعوة
النبي صلى الله عليه وسلم منهم كل هذا النفور ولما كانت حجتهم المثلثى في رفض الدين
الجديد قولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » و « انما نقيم
ما وجدنا عليه آباءنا » فان الامم المتحضرة للنهوض لا تدفع المجددين بمثل هذا الاصل
الدال على اقصى درجات الجحود . بل عهدناها تكتسب شعورا حادا يسوقها لكراهية
ما كان عليه آباؤها الاولون ، وقد تغلوفت نسلخ من حقهم و باطلهم ، و حَسَنَهم وقبيحهم
علي السواء ، وتزأى في احضان كل جديد حتي ما كان منه ضارا بها كما يشاهد في
تركيا ومصر اليوم . فالفضل في التطور العظيم الذى دخلت فيه الامة العربية فأصبحت
به منقذة العالم من برائن الجهالة والهمجية يرجع الى الروح المحمدية التي بثت الحياة
في هذه الاشباح الجامدة فحركتها لطاب الحياة الصحيحه من كل مظالمها ، وبثت
هذا الشعور فيمن حولها من الجماعات حتي استحققت خلافة الله في الارض كما
استحققتها قبلها امم لاصلة بينها وبين العرب في شيء : « وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمننا يعبدونني لا يشركون بي شيئا »

مبلغ اتصال العرب بالامم الاجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم في السياسة العامة

يقول الدكتور طه حسين ان عرب الجاهلية كانوا على اتصال قوى بمن حولهم من الامم قسمهم احزابا وشيعا، وانهم كانوا يعنون بسياسة الفرس والروم وعلى اتصال اقتصادي بغيرهم من الشعوب، وانهم تجاوزوا باب المندب الى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين الى مصر، وانهم كانوا امة متحضرة راقية لا امة جاهلة همجية

نقول قبل نقد هذا الكلام انه يجب على القارىء ان يذكر ان العرب كانوا فرقة فريق يجاور الفرس والروم في العراق والشام والاحباش في اليمن، وفريق في نجد والحجاز بعيد عن مطاعم الامم الاجنبية لبعوثة الوصول اليهم من جهة ، ولجذوبة ارضهم من جهة اخرى . فاما الفريق الاول فكان واقعا تحت سلطان الامم الاجنبية منذ قرون قبل البعثة المحمدية . وقد استقام لذلك السلطان حتي صار لا يحدث نفسه بالافتصال عنها . فكان افراد من هذا الفريق يجاوزون حدود بلادهم فيجوبون بلاد الفرس والرومان والحبشان طلبا للعيش . ونحن مع اقتناعنا بأن عرب تلك البلاد كانوا علي شيء من الحضارة الا ان شخوصهم الى تلك الاقطار لا يصح الاستدلال به علي رقيهم الادبي والاجتماعي فان كثيرين من بدو طور سيناء وطرابلس و برونو وغيرها يحضرون الي مصر ويعودون الي بلادهم وهم علي ما هم عليه من شظف العيش والجهل علي المألوف

وهذه الاقطار العربية التي كانت خاضعة للاجانب لم ترفع بالاسلام رأسا عند ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، بل بقيت مخلصمة لساداتها الاجانب وساعدت جيوشهم لصدد العرب المسلمين عن بلادها وبلادهم . وقد ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم

جيشا نخاض اليمن من مخالب الفرس وغزا بنفسه شمال بلاد العرب فدفعت له بعض قبائلها اجزية . ثم خلفه ابو بكر فلم تطل مدته لعمل شيء اكثر من ارجاع القبائل العربية التي ارتدت بعد وفاة النبي الى حظيرة الاسلام ومن فتح بعض سورية . ثم لما خلفه عمر فتح بلاد العراق والفرس ومصر وألحقها ببلاد المسلمين

وكان تحضر هذا الفريق ورقية ينحصران في ان الطوائف المجاورة للفرس اقتبست بعض عاداتهم في الملبس والمأكل والمسكن والمجاورة للرومان دانت لملتهم واخذت اخذهم في حياتهم ، ولكنهم لم يبلغوا قط مبلغ قاهريهم في علومهم وصنائعهم ولم يدركوا شأؤهم في مدنيتهم وترفهم . فلم يترك لنا المجاورون للفرس مثل ما تركه سادتهم في ذلك العهد من طبهم وفلسفتهم وآدابهم ، ولا المجاورون للرومان مثل ما بقوه من شرائعهم ونظمهم وعلومهم . والحكم للسعوب بالرق والمدنية لا يكفي فيها مجرد الادعاء ، فان للمدنية آثارا تبقى ، وللرق معالم يقف عليها الاخلاف فيعرفون منها مبلغ ما وصل اليه اسلافهم . فان قلنا ان المصريين كانوا متمدنين راقين منذ خمسة آلاف عام قائما نستدل على ذلك بما تركوه لنا من الاهرام والانصاب والتماثيل والنقوش والمصنوعات . فهل لمن جاور الفرس والرومان من العرب شيء من هذه المتروكات لنستدل بها على انهم كانوا راقين متمدنين وعلى مبلغ ما وصلوا اليه من الرقي والمدنية ، اللهم الا اطلال قصور كانوا يستأجرون البنائين الاجانب لاقامتها لهم كما يستأجر القروي الثري بعض البنائين من القاهرة ليبنوا لهم دورا فخمة لا تقل عن احسن قصور العاصمة ، بينما جمهور اهل القرية يسكنون الاكواخ المتخذة من الطين

اما الفريق الثاني من العرب وهم اهل نجد والحجاز فقد كانوا من الاولين في كل ناحية من نواحي الترقى الادبي والمادى لاشتغالهم بالغارات وبعدهم عن مراكز الحركة المدنية . فلم يكونوا على اتصال قوى بمن حولهم ، قسمهم احزابا وشيعا كما يقول الدكتور طه حسين ، وما كانوا يعنون بسياسة الفرس والرومان ، ولا كانوا متأثرين بالسياسة العامة ولا مؤثرين فيها

قد يكون حدث ان بعضهم تقلب في بعض بلاد الفرس والرومان طلبا للعبث بنقل

بعض البضائع وبيعها هنالك . ولكن لا يصح تسمية هذه الانتقالات الفردية ،
والمعاملات التافهة اتصالا قويا في العرف السياسي . فلدينا هنا اليوم رجال من
بورنو وشنقيط والصومال يتعلمون العلم في مدارسنا ويوردون الينا شيئا من
مصنوعاتهم ومحصولاتهم وينقلون لبلادهم شيئا من مصنوعاتنا ومحصولاتنا ومع ذلك
فلا يقال ان بيننا وبينهم اتصالا قويا . ويتبع هذا انهم لا يعقل ان ينقسموا الى احزاب
وشيع بسبب هذا الاتصال الذي لا يذكر والا لظهر تأثيره فيهم ، ولا تنتقل خبره
اليها في شيء من الشعر او التاريخ على علانها . وقد ذكر في اشعارهم انهم اتصلوا
بالجن والاغوال والسعالي وورد في تاريخهم اخبار عن هذه الكائنات ، ولم يصلنا عن
اتصالهم بالفرس والروم شيء غير ما ذكرنا

اما ما استند اليه الدكتور طه حسين في هذا الصدد من قوله تعالى « غلبت الروم
في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين ويومئذ يفرح المؤمنون
بنصر الله » فان له سببا : وذلك انه لما وردت اخبار الركبان بان الفرس غلبوا الرومان
في حرب كما يرد الي انيجيريا او ليبريا او السنغال اخبار عن مصر وتركيا والصين
والسويد ، فرح المشركون لا انتصار الفرس ، لا لأن ذلك الانتصار سيكون له تأثير في
نجد والحجاز ، ولكنهم تفاءلوا منه لانفسهم اذ قالوا ان الروم اهل كتاب مثلكم ،
والفرس لا كتاب لهم مثلنا ، وقد انتصر الاخرون على الاولين فسننتصر عليكم نحن
كذلك . فزلت هذه الآية تنبئهم بأن النصر سيكون للروم في بضع سنين ويومئذ
يفرح المؤمنون بانتصار اهل الكتاب على من لا كتاب لهم . فراهن ابو بكر بعض
المشركين على ان ذلك سيقع بعد ثلاث سنين واخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل
فقال له ان البضع تمتد الى التسع فمد في الاجل الي تسع وزده في الرهان . ففعل . ولم
تمض هذه المدة حتي كر الروم على الفرس فهزموهم

هذه حقيقة تلك الآية وهي لا تعدو التفاؤل كما تفاءل المصريون بانتصارنا باثنين
على الروس باعتبار انهم شرقيون مثلهم ، وكما فرحوا بانتصار الاحباش على ايطاليا
لكراحتهم لمبدأ الاستعمار لا لتأثرهم من انتصار احدهما على الاخرى في اى ناحية
من نواحي شؤونهم الادبية او الاقتصادية

والا فلماذا كان تأثير الفرس غير الكتابيين في الدعوة الاسلامية وقد اثبت امد
انتصارهم تسع سنين ؟ أقلل من نشاط النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أصد الناس عن الدخول
في الاسلام ؟ أمد المشركين بما يمكنهم من ابادة الذين آمنوا بالقرآن ؟
ثم ماذا كان من تأثير كفة الروم على الفرس ؟ أفت في عضد المشركين فحملهم
على الدخول في دين الله افواجا ؟ أهالهم امره فسلموا مكة لرسول الله بلا حرب ؟
أستوجب ان يمد الروم المسلمين بالسلاح والمال ليتقوا بهما على المشركين ؟
شيء من ذلك لم يكن ، وهو اول دليل على ان ماورد في القرآن مما يتصل بهذا النزاع
بين الروم والفرس كان الداعي اليه ما ذكرناه من نفي تفاؤل المشركين لانهم كانوا مؤثرين
في السياسة العامة ولا متأثرين بها

اما اتصالهم الاقتصادي (اي اهل نجد والحجاز) بغيرهم من الشعوب فكان على
ادني ما يمكن ان يتصوره العقل وكل ما في هذه المسئلة ان سكان مكة كان لهم
رحلتان احدهما في الصيف الى الشام والآخرى في الشتاء الى اليمن . وكان غرضهم
من ذلك مبادلة أشياء من محصولاتهم ومصنوعاتهم بأشياء من محصولات ومصنوعات
ذينك القطرين . ومثل هاتين الرحلتين لانسيان اتصالا اقتصاديا بالمعنى المعروف
عند علماء الاقتصاد . فان كل ما فيها ان أهل مكة والمدينة كانوا يسافرون مرة الى
الشمال ومرة الى الجنوب لاستيراد بعض ما هم في حاجة اليه من الاقمشة والآنية والاسلحة
كما يحصل بين كل بلدين متجاورين . وما كان أهل مكة والمدينة في حاجة الى شيء يعتد به
يصح تسميته اتصالا اقتصاديا

فان كان لابد من الاستدلال بالارقام فاليك ما جاء في السيرة النبوية عند الكلام
على غزوة العشيرة . وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج في نحو مئتين من اصحابه
يريد غير قريش التي صدرت من مكة الى الشام بالتجارة . وكانت قريش جمعت
اموالها في تلك العير ويقال ان فيها خمسين الف دينار والف بعير . وكان قائد
تلك العير ابوسفیان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلا
منهم مخزومة بن نوفل وعمرو بن العاص فوجدها قد مضت قبل ذلك بأيام .
وهذه العير هي التي خرج اليها لما عادت من الشام فأفلتت منه وحدثت بسببها

ثروة تقدر بنخمسين الف او مئة الف دينار ليست بشيء يذكر ولا يخفى ان مؤلفي المسلمين لا يهتمون في بنس ثروة قریش

وماذا يرجي ان يكون من الانصالات الاقتصادية بالخارج في مدينة يسكنها زهرة العرب وليس فيهم من يعرف القراءة والكتابة غير رجلين اثنين حتي انه لما نشأت الدولة الاسلامية واحتاج الامر لتدوين الدواوين واحصاء الجنود واصحاب الحقوق اضطروا لاستخدام الكتبة من غير العرب فكانت اللغات الرسمية في الولايات هي لغات اهل تلك الولايات اعدم وجود من يصلح من العرب لذلك . فلما وجد في العرب متعلمون في خلافة عمر ابدل هؤلاء بأولئك

فنحن وافقنا الدكتور طه حسين في ان عرب الجاهلية كانوا على اتصال بمن حولهم من الامم ، وعلى ان بعضهم كان على شيء من الحضارة ، ولكن في الحدود التي رسمناها هنا بشهادة الواقع نفسه ، والافأى سحر بيان في العالم يستطيع ان يقنع الناس بأن امة يقال انها كانت متحضرة وراقية ومتصلة اتصالا اقتصاديا قويا بالامم المجاورة لها ، وكانت مؤثرة في السياسة العامة ، ومع هذا كله لم يوجد فيها بعد ان صارت دولة رجال من ابناءها ممن يعرفون القراءة والكتابة يستطيعون ان يتولوا العمل لا نقول في وزارات ومصالح ولكن في بضعة سجلات يحصرون فيها اسماء الجند واصحاب المرتبات ؟

ان كل من يتعمق في دراسة تاريخ عرب الجاهلية ويستبطن ما كانوا عليه من عوامل التقهقر التي اوقعتهم تحت نير الامم المجاورة لهم وقضت على البعيدين منهم عن تلك الامم في حالة بداءة وفوضى وتناحر آما داطويلة ، يدهش من عظم تأثير الروح الحمديدية التي اذابت هذه السكتل المتحجرة من الطوائف المتعادية ذات التقاليد والعادات الموبقة ، وكوَّنت منهم امة ذات اصول ومبادئ عالية دفعتها في سنين معدودة الى بلوغ غاية من العلم والمدنية لم تبلغها امة قبلها ، ولا يزال العالم يتأثر بروح منها

٤

الشعر الجاهلي واللغة

ننتقل الآن الى الفصل الرابع من فصول كتاب الشعر الجاهلي ونلخصه فيما يلي مع المحافظة على عبارات المؤلف قال :

(الشعر الذي رأينا انه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب اجاهلين بعيد كل البعد عن ان يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة انه قيل فيه . فلنجهد)

(في تعرّف اللغة الجاهلية هذه ماهي ، او ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة)

(ان شعرهم الجاهلي هذا قد قيل فيه . اما الرأي الذي اتفق عليه الرواة او كادوا)

(يتفقون عليه فهو ان العرب ينقسمون الى قسمين : قحطانية منازلهم الاولى في اليمن)

(وعدنانية منازلهم الاولى في الحجاز)

(وهم متفقون على ان القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم)

(العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا ، كانوا يتكلمون)

(لغة اخرى هي العبرانية او الكلدانية ثم تعلموا لغة العرب العاربة . وهم متفقون)

(على ان هذه العدنانية المستعربة انما يتصل نسبها باسماعيل بن ابراهيم)

(ويتفق الرواة ايضا على ان هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب)

(العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة)

(اذ اكان ابناء اسماعيل قد تعلموا العربية من اولئك العرب العاربة فكيف)

(بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب)

(المستعربة حتي استطاع ابو عمرو بن العلاء ان يقول انهما لغتان متمايزتان . وواضح)

(جدا لكل من له الملم بالبحث التاريخي عامة و بدرس الاساطير والاقاصيص خاصة)

(ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية او)

(اقتصادية او سياسية)

(للتوراه ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل، وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ولكن)
 (ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا)
 (عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة)
 (العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة)
 (في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن)
 (والتوراة من جهة اخرى . واقدام عصر يمكن ان تكون نشأت فيه هذه الفكرة انما)
 (هو هذا العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويثبتون)
 (فيه المستعمرات . فنحن نعلم ان حروبا عنيفة شبت بين اليهود المستعمرين وبين)
 (الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة . فليس)
 (يبعد ان يكون هذا الصالح الذي استقر بين المغيرين واصحاب البلاد منشأ هذه)
 (القصة التي تحمل العرب واليهود ابنااء اعمام)

(ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو ان ظهور الاسلام وما كان من الخصومة)
 (العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير اهل الكتاب قد اقتضى ان تثبت الصلة)
 (الوثيقة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود)
 (فاما الصلة الدينية فثابتة واضحة ، ولكن هذه الصلة معنوية عقلية يحسن ان)
 (تؤيدها صلة اخرى مادية ملموسة بين العرب واهل الكتاب . فما الذي يمنع ان)
 (تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟)

(وقد كانت قریش مستعدة لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع)
 (للمسيح . فقد كانت في اول هذا القرن قد انتهت الى حظ من النهضة السياسية)
 (والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوى على جزء)
 (غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان)
 (امرين : التجارة من جهة والدين من جهة اخرى)

(فاما التجارة فكانت قریش تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن)
 (وبلاد الحبشة)

(واما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قریش ويمج اليها العرب)

(المشركون في كل عام والتي اخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعاً)
 (من السلطان قويا ، والتي اخذ العرب المشركون يجعلون منها رمزا لدين قوى كان)
 (يريد ان يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية . فنحن نلمح في الاساطير ان)
 (شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران . ونحن نلمح في الاساطير ايضا)
 (ان هذه المنافسة بين مكة وبين الكنيسة التي اسأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت)
 (الي حرب الفيل التي ذكرت في القرآن)

(فقر يش اذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ونهضة دينية)
 (وثنية . وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة)
 (سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد)
 (العربية . فيكون من المعقول جدا ان تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن اصل)
 (تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية المأجدة التي تتحدث عنها الاساطير .)
 (واذن فليس ما يمنع قريشا ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبة من تأسيس)
 (اسماعيل وابراهيم)

(امر هذه القصة اذن واضح : فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام)
 (واستغلها الاسلام لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا . واذن)
 (فستطيع ان نقول ان الصلة بين اللغة العربية انفسجي التي تتكلمها العدنانية واللغة)
 (التي كانت تتكلمها القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة العربية واي لغة اخرى من)
 (اللغات السامية . وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جرهم كل)
 (ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيه)

(والنتيجة من هذا البحث هي ان الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة)
 (الجاهلية ولا يمكن ان يكون صحيحا . ذلك لاننا نجد بين هؤلاء الشعراء الجاهليين)
 (قوما ينتسبون الى عرب اليمن التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن والتي اثبتت)
 (البحث الحديث ان لها لغة اخرى غير العربية)

(ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف الي شعراء هذه القحطانية في الجاهلية)
 (لانجد فرقا بينه وبين شعر العدنانية ، بل لانجد فرقا بينه وبين لغة القرآن .)

(فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله ؟ امر ذلك يسير وهو ان هذا الشعر الذي يضاف)
(الى القحطانية ليس منها في شيء وانما حمل على شعرائها بعد الاسلام لاسباب)
(مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الاسباب)

راينا في هذا الكلام

ذهب علماء العربية الى ان القحطانيين عرباً خاص لغتهم العربية الفصحى
وان العدنانيين عرب ولكن جدهم الاعلى اسماعيل بن ابراهيم ، ويذهب الدكتور
طه حسين الى ان لغة اليمن لغة غير العربية اعتمادا على قول اللغوى عمرو بن العلاء
وبعض الباحثين المحدثين . وان الصلة بين العربية الفصحى التي كانت تتكلمها
العدنانية وبين اللغة التي كانت تتكلمها القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة
العربية واي لغة اخري من اللغات السامية . ونحن لا نوافقه على هذا الرأي بل هو
غير معقول اصلا واليك البيان :

١) الاصل في اللغات السامية البابلية وقد اشتقت منها العبرانية والحبشية والسريانية
والعربية حتي ان العارف باحدى هذه اللغات يستطيع ان يعيش بين ظهرائي اهل
سائر هذه اللغات ويؤدي حاجاته الضرورية ببلغته ثم لا يلبث غير قليل حتي يصير في
لغتهم كأحدهم . وقد كانت سميت اللغة التي يتكلم بها ساكنو الحبشة باللغة الحبشية
واللغة التي كان يتكلم بها ساكنو بابل باللغة البابلية فمن الحق ان تسمي اللغة التي يتكلمها
اهل البلاد التي اصطلح على تسميتها قديما وحديثا ببلاد العرب باللغة العربية . وقد
أطلق مؤرخو الاقدمين على اليمن اسم البلاد العربية حتي سماها اليونانيون لغناها
ببلاد العرب السعيدة . واذا كانت اليمن من بلاد العرب فمن العبث ان تسمي لغتها
باللغة العربية . واذا ثبت ان بين لغة اليمن ولغة نجد وتهامه اختلاف فيجب ان نلتزم
تعليل هذا الاختلاف في لاسباب السياسية والاقتصادية والجغرافية لافي غيرها . واذا
كننا رغما عن الخلاف الكبير بين اللغات الحبشية والعبرانية والسريانية وامر بية
ندعي انها كلها مشتقة من البابلية فمن العبث ان يحملنا الخلاف الموجود بين لغتي شمال

العرب وجنوبها على القول بانهما لغتان متمايزتان مع وجود الصنف المميزة الوحيدة للغة العربية وهي الاعراب في كلتا اللهجتين العدنانية والقحطانية

واذا كان بين اللهجتين العدنانية والقحطانية خلاف فبأى مرجح ندعي ان العدنانية هي اللغة العربية الفصحى وان اليمنية لغة اجنبية ، مع ان اهل هاتين اللغتين جميعا يسكنون بلادا اطلق عليها الناس من يوم خلقت اسم البلاد العربية ، ولا مرجح لذلك لا من الوجهة الجغرافية ولا من الوجهة الدينية فكلتا الطائفتين كانت تسكن بلادا واحدة وتحج الى كعبة واحدة ، وتجري في اخلافها وعوائلها على سنة واحدة ، وتعرفان انهما ابناء امة واحدة وكلتا هما دختلتان في البلاد العربية

نعم لك ان تقول ان لغة العدنانية كانت ارق من اللغة القحطانية ، وان لهجة قریش كانت ارق من سائر لهجات القبائل العدنانية التي كانت تتخالف فيما بينها تخالفا عظيما ، حتى نزل القرآن بها . ولكن لك ليس ان تقول ان القحطانية ليست بعربية بسبب الخلاف بينها وبين العدنانية

اما هذا الخلاف بين اللغتين العدنانية والقحطانية فسببه يرجع الى عوامل سياسية واقتصادية . فان اليمن لعظم مواردها الطبيعية قد تعاورها الفاتحون من زمان بعيد فاحتلها الفرس والاحباش آمادا طويلة . وقصدها التجار من مختلف الاقطار فتمسرت الى لغتها الفاظ كثيرة من لغات الفاتحين والمتعاضدين باينت بها عربية شمال بلاد العرب كما باينت اللغة التركية التي يتكلمها اترك الاناضول وتراقيا اللغة التركية الاصلية التي يتكلمها الاتراك الخالص في التركستان وبلاد القفقاز ، وذلك بسبب دخول الفاظ عربية وفارسية واوربية اليها حتى صار التركي الاناضولي لا يفهم لغة التركي التركستاني او التتاري . وكما باينت اللغة الالمانية التي يتكلمها المان امريكا لغة اخوانهم الالمان في وسط اوروبا

اما تقسيم اللغويين القدماء العرب الى عاربة لغتها الاصلية العربية ، والي مستعربة لغتها الاصلية العبرانية فليس بشيء . فان اسماعيل لما سكن مكة كان غلاما صغيرا كما يقولون واختلط هنالك ببني جرهم . فالمعقول ، وبخاصة مع تقارب اللغتين العبرانية

والعربية ، انه لم يلبث معهم شهورا حتى صار يتكلم العربية مثلهم . ثم لم تمض عليه بضعة
سنين حتى نسي لغته الاصيلة . وقد روى انه تزوج امرأة من جرهم وولد له اولاد منها ،
فكيف يعقل ان اولاده تكلموا العبرانية في تلك البيئة التي ليس فيها من يتكلمها حتى
ولا اباؤهم لنسيانها اياها ولا استغنائها عنها (

فالمعقول ان اسماعيل وبنيه نشأوا يتكلمون العربية لغة امهم فاية حاجة بعد
هذا لتقسيم العرب الى عاربة ومستعربة ؟ ألا ان اسماعيل كان عبرانيا ؟ اذن وجب
قياسا على هذا ان يكون بين العرب عرب مستعربة لا يحصى لهم عدد فقد تزوج
رجال من الزنوج والاحباش والفرس والروم في كل الاجيال نساء عربيات فيجب
ان يطلق على اولادهم جريا على هذه القاعدة اسم عرب مستعربة . هذا لم يحصل
قط . فلماذا اذن خص اولاد اسماعيل بهذا الاسم الى اليوم ؟ وهل كان بقي من
عبرانيين شيء من عهد اسماعيل الى عهد النساين الذين وضعوا هذا التقسيم في صدر
الاسلام عن جمل وهذه المدة تقدر بنحو سبعة وعشرين قرنا

كان هذا التقسيم يكون له موضع لو ان قبيلة عبرانية برمتها هاجرت من فلسطين
الى بلاد العرب وحافظت على ديانتها وتقاليدها ومقوماتها ولكنها اتخذت اللغة
العربية لغة لها . فيصح ان يطلق على هذه القبيلة انها مستعربة ولكن تسمية
نصف الامة العربية بالمستعربة لان رجلا واحدا اندمج فيها منذ عشرات من القرون
فهذا اغرب ما يسمع من انساب الامم وليس له نظير في العالم كله

يقول الدكتور طه حسين : « اننا مضطرون ان نرى في قصة هجرة اسماعيل الى
مكة ونشوء العرب المستعربة بها نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود
والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى . واقدام
عصر يمكن ان تكون نشأت فيه هذه الفكرة انما هو العصر الذي اخذ اليهود
يستوطنون فيه شمال البلاد العربية . فنحن نعلم ان حروبا عنيفة شبت بين اليهود
وبين الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة
فليس بعيد ان يكون هذا الصلح منشأ هذه الفكرة التي ستجمل اليهود والعرب

اولاد اعمام

ثم قال : « امر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا »

ونحن نقول ان شمال بلاد العرب لا يسكنه العدانيون من ذرية اسماعيل وحدهم بل يسكنهم فيه العرب القحطانيون فكان بنو غسان في بادية الشام وهم اول من لقيهم اليهود من العرب في طريق هجرتهم . وكانت قبيلتا الاوس والخزرج سكان المدينة الذين اختار اليهود جوارهم من القحطانيين ايضا . وكان في شمال بلاد العرب من القبائل القحطانية بنو مذحج في اطراف الحجاز ، وبنو الازد في منى ، وبنو خزاعة بجوار مكة وجل هذه القبائل اشتركت في اصلاء اليهود نيران الحروب وكانت اشدها عليهم فاذا كانت قصة هجرة اسماعيل الى مكة قد اخترعها اليهود لاثبات قرابتهم للعرب بقصد رد عاديته عنهم فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصة ببعض العرب دون البعض الاخر وكلهم كانوا سواء في خصومتهم ، بل كان اول من قابلهم في طريقهم القبائل اليمنية وقد اختاروا ان يحساوروا تلك القبائل بقرب يثرب ؟ وما دام اساس هذه القصة الخلدع والتزوير وقد حدثت قبيل ظهور الاسلام اى بعد هجرة القبائل اليمنية الى شمال بلاد العرب فأى داع جعلهم يقصرون الخلدع على بعض القبائل دون البعض الاخر ؟

ثم لو كانت هذه القصة حيلة من اليهود افتعلوها ليعيشوا مع العرب بسلام آمنين لكانوا ، حين اجمعوا على الهجرة الى بلاد العرب ، جعلوا تر ويجها بين العرب باكورة اعمالهم لأن يبدأوا هجرتهم بالحروب العنيفة حتي اذا طعنهم المعارك سنين ابتكروها لتكون سببا في اجتلاب عطف خصومهم عليهم

وهل ابتكارها بعد تلك المعارك الطاحنة لا يثير في نفوس العرب الشك في صحتها ، بل الجزم بأنها حيلة يراى بها خضد شوكتهم ، وتلثم حميتهم ؟

وعلى اى اساس طاف بمخيلة اليهود ان هذه الحيلة ترد عادية العرب عنهم ؟ أنسوا انهم يكبرون شأنهم الى حد انهم يفخرون بقرابتهم لهم وهم يضربون وجوههم وادبارهم ، ليطردوهم من بلادهم ؟

أرأوا ان العرب يباهون بالاعتزاء الي اب اجنبي عنهم فاتوهم من جهة ميلهم هذا وأوهموهم انهم ابناء اسماعيل لا ابناء رجل عربي صميم ، وهم معروفون منذ اقدم ايامهم بكرامية الدخلاء ، وتحقير الملحقين والادعياء ، حتي انهم ليسمون من كانت امه عربية وابوه احنبيا بالهجين تحقيرا له ؟

أشهدوا ان العرب يعظمون اليهودية ، ويعتبرونها ديننا سماويا صحيحا فيسرهم ان يكرموا وفادة الاخنين به فزوروا لهم هذه القرابة ؟
أأحسوا ان العرب يعظمون ابراهيم ويعدونه نبيا ويسرهم ان ينتسبوا اليه فقاموا بتزوير هذه النسبة لهم توسلا بها لنيل مرضاتهم ؟

أعلموا ان العرب كانوا يحبون التوحيد حبا جما ويحبون كل داع اليه ، ويسرهم ان يكونوا اقرباء زعمائه الاولين ، فاختلفوا البابهم بتمويه هذه الحيلة عليهم ، وهم المعددون للآلهة ، القائلون لمحمد عليه الصلاة والسلام : « أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا شيء عجاب ، وانطلق الملا منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الاختلاق » وقالوا : « انا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » كما ورد في اقرآن عنهم في سورتي ص والصفات

ثم اننا نقول ان قريشا لم تعمل قط على ترويج نسبتها الى ابراهيم واسماعيل لعدم وجود اى دليل على ذلك . ولعلها امتنعت عن ذلك لثلاثة اسباب :

(اولها) انها لم تكن تأبه بهذه النسبة لان اسماعيل لم يكن في نظرها ممن يؤبه له (لامن الوجهة الدينية ، فانها كانت وثنية ، ولامن الوجهة الدنيوية ، فانه لم يكن ملاكا عظيما ، ولا فاتحا خطيرا ، ولا فارسا مغوارا ، ولا شيئا مما يعتد به الجاهليون ويفخرون به . ولو كانوا يرون في الانتساب اليه فخرا لهم لأكثروا من تسمية انفسهم بابراهيم واسماعيل ولكانوا على دينها متشددين في التوحيد ، متمسكين بادابهما الى مدى بعيد .

(ثانيا) ان ترويج نسبة قريش اليهما لم يكن يُرجي من ورائه فائدة لها ذلك لانها لم تكن هي القبيلة الوحيدة التي تنسب اليهما فقد كان نحو نصف العرب ينتسبون اليهما ،

ويعرفون انها هما اللذان بنيا الكعبة

(ثالثها) لأن هذا الترويج كان يفضى الى إضعاف القبائل اليمنية عليها . وأن تلك القبائل لم تكن تعتقد بنبوتها حتي تخضع للمنتسب اليها ، فكانت تعد ذلك من قریش فضولا يسقط من كرامتها بدل ان يرفع من منزلتها

ومما يدل دلالة تكاد تكون محسوسة على ان قریشا لم يطف بنحياها هذا الترويج قط عدم عنايتها بتسمية اولادها براهيم او اسماعيل وانت خبير أن هذه التسميات ذات دلالات قوية على تطور الحوادث الاجتماعية حتي انها وحدها تشير الي مبلغ تشيع الشعوب لبعض الافراد الممتازين ، او الي دور انتقال جديد ، او الي اتجاه الامة نحو مثل أعلى في الحياة الادبية

اما الذي احيا هذا التاريخ القديم في البلاد العربية ، ووصل بين حلقات الحوادث الخاصة به ، واشاد بذكر ابراهيم واسماعيل فهو القرآن وحده لانه جاء بالتوحيد و ابراهيم كان اشهر الداعين اليه في الاولين ، وهو مع هذا الجد الأعلى لكثير من القبائل العربية ، وباني الكعبة . فكان من مصلحة الدعوة الاسلامية ترويج هذا التاريخ الصحيح واشاعته بكل ما في الوسم من بيان وتأثير

فالقرآن هو الذي احيا اسمي ابراهيم واسماعيل في بلاد العرب ، ونوه بديانتها الحنيفية القائمة على التوحيد والتنزيه ، ودعا ذريتهما العرب الي الاخذ بها ونشرها في العالمين حتي ان الدين قرن اسمه في التشهد في الصلاة باسم خاتم النبيين وهو « اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد »

وقد انتج التنويه بابراهيم واسماعيل نتيجة الطوعية فأخذ الناس بدينها واكثروا من التسمي باسميهما . هذا هو الترويج لئلا ينحيا ودينها ، وهذا اثره في حياة أمة برمتها لا ما كان عليه الحال في الجاهلية

لهذا الترويج لزعماء المذاهب الكبرى فائدة لا ننكر فهذا هو الدكتور طه حسين نفسه يكثر من ذكر ديكارت ويروج اسلوبه في البحث ترويجا رآه بعضهم (بغير حق) داعيا الي السخرية . فما ظنك لو كان ديكارت هذا جدا أعلى للامة المصرية

أكانت دعاية الدكتور طه حسين له تقف عند حد ؟ وهل كان يلومه عاقل على استهتاره ذلك وبلوغه منه أقصى ما يحتمله الوسم ؟

ويقول الدكتور طه حسين : ان قصة هجرة اسماعيل الى مكة نوع من الحيلة لاثبات الصلة بين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة

ونحن نسأله أكان الاسلام ، لأجل ان يقوم بما انتدب له من هداية العرب ورفعهم الى مستوي الامم الحية ، في حاجة الى انتحال الصلة بينه وبين اليهودية حتي يصح ان يقال انه استغل هذه القصة لمنفعته الشخصية ؟

ان اساس اليهودية التوحيد فهل كان العرب يحبون التوحيد الى حد أنهم لا يقبلون ديناً جديداً لا يكون ذا صلة بالدين الذي يدعوا اليه من زمان بعيد وهو اليهودية ؟

ان العرب كانوا يكرهون اليهود واليهودية ويعملون على طردهم وطردها من بلادهم بالسيف والرمح فهل من حسن سياسة الدين الجديد الذي يعمل لان يكون دين العرب كلهم ان يثبت ان بينه وبين اليهودية صلة وثيقة من بعض الوجوه ؟

واذا قيل ان محمداً استغل هذه القصة ليسرغ له ادعاء النبوة باعتبار أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم فهل كان هو وحده من بين جميع القبائل العدنانية من ذرية اسماعيل ابن ابراهيم ؟

وهل كان من القواعد المقررة عند العرب انه لا ينال النبوة الا رجل من ذرية اسماعيل بن ابراهيم ؟

وهل كان العرب يعتقدون بنبوة اسماعيل وهو موحد وهم معدودون ؟
ان العرب العدنانية كانوا يعرفون بأنهم ذرية اسماعيل بن ابراهيم ولكنهم لم يكونوا يفخرون بذلك . ولو كانوا يفخرون به لسلأوا الدنيا شعرا في هذا الباب ولاشدد التناظر بينهم وبين العرب القحطانيين ، ولا تمتنع هؤلاء عن الحج الى مكة نكاية في العدنانية . والحقيقة ان العرب لاشتغالهم بتنازع البقاء ، ولوقوعهم في التناحر الشديد ، كانوا بعيدين عن البحث في امثال هذه المسائل الكيالية . فكل الذي كان يمنيهم هو ان يحصلوا على القوت والماء في تلك الصحاري والمهامه الفاحلة الماحلة التي تسم انهار

الدنيا مجتمعة ولم تمنح منها بجدول يدل غلة اهلها بشيخ زلال ، وينبت لاهلها بعض ما تحتاج اليه من النباتات

بقي القرآن، فهل كان في حاجة لأن يثبت ان بينه وبين التوراة صلة، وهو ينعي على اهل التوراة تحريفهم للكلام ، وصرفهم الامور عن وجوها ، ويشنع عليهم بذكر تمردهم على موسي وهرون، وعبادتهم العجل في دور من أدوارهم الخ، الخ، فهل مما جرت به العادة ان يعتمد المحتال على اثبات صلة كتاب بكتاب الي مهاجمة اهل هذه المهاجمة العنيفة ، ويؤلمهم هذا الايلاام الشديد، ليحملهم على العمل ضده بكل ما في استطاعتهم، ام يلاينهم ويصانعهم ، ويتوسل لاثبات تلك الصلة بوجوه غاية في المهارة وحسن الاسلوب ؟

ثم اننا نسأل هل كان عرب الجاهلية يحترمون التوراة ويرونها كتابا الهيا ويتخذون منها تمام وطلاسم للتبرك بها ، و يكتبون آياتها على جدران بيوتهم، ويحفظون نسخا كاملة منه في معابدهم ، فرأى محمد أن من حسن التوصل الى قومه ان يعمل جهده على اثبات ان بين كتابه وبين التوراة صلة مؤكدة ليا نسوا به وبحبوه حبه للتوراة واقل قليلا ؟ وهم الذين كانوا يعملون على طرد اليهود من بلادهم بما حملوا من كتابهم واساطيرهم بأقسي ما يتصوره العقل من حرب طاحنة ؟

اللهم اننا لانرى وجها للحيلة في اثبات الصلة بين الاسلام واليهودية ولا بين القرآن والتوراة ، ، فان كان في القرآن ذكر عن اليهودية والتوراة فقيسه ذكر عن النصراني والانجيل ، بل هو قد ذكر النصراني والانجيل وعيسي والحواريين والرهابنة بكثير من العطف فقال : « ولتجدن أقر بهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصاري ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ». وقد ذكر ايضا الصابئة والمجوس والدهريين ومنكري المبعث وغيرهم . ذلك لان الاسلام قد جاء باصلاح ديني عام للامم كافة فكان لا بد من ذكر هذه الاديان والتنبيه على ما فيها من الانحراف عن جادة المنطق للناس في اهلها كما يضطر الفيلسوف الى ذكر مذاهب اسلافه ونقدتها

ويقول الدكتور طه حسين : « ان قريشا كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنائية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية . فيكون من المعقول جدا ان تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن اصل تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية المأجدة التي تحدث عنها الاساطير . واذن فليس ما يمنع قريشا ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبة من تأسيس اسماعيل و ابراهيم »

ونحن نقول ان كان هذا صحيحا وكانت قريش تحاول ان توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنائية كانت تبحث لنفسها عن اصل تاريخي يعم جميع العرب لاجل ان يشطرها شطرين فيجعل بعضها من ولد اسماعيل وبعضها لاصل له ، خصوصا وان الجهات الواقعة تحت برائن الاستعمار الفارسي والروماني والحبشي كل سكانها من القحطانيين . فالذين وهي بيئة القحطانيين كانت تئن تحت النير الحبشي والعراق الذي كان يسكنه بنو تنوخ كان تحت سلطان الفارسيين ، وشمال بلاد العرب الذي كان يشغله الغسانيون كان يرزح تحت كلاكل الرومانيين وكل هذه الاقطار كانت مأهولة بالقبائل القحطانية التي لا تمت الى اسماعيل بسبب ، فهل يعقل ان تختار قريش اصلا يخرج من حظيرتها هذه القبائل التي تحاول تخليصها من نير الاستعمار الاجنبي وهي اقوى العناصر العربية واصلاحها للوقوف في وجه الاجنبي لو توحدت كلمتها ، وحسنت قيادتها ؟

ثم نقول : ان الطائفة التي تلتحل اصلا تاريخيا لمحاولة ايجاد وحدة سياسية تحت سلطانه انما تعتمد الى اصل تبجله تلك الامة كل التبجيل ، وتفخر بالاعتزاز اليه ، فهل كانت الامة العربية وهي غرقى في لجة وثنيتها تعتقد بنبوة ابراهيم واسماعيل قبل تلفيق تلك النسبة ليسوع الفول بانها في نظرها من الاصول المأجدة ؟ وهل كانت تفخر بالنسب اليهما وهي تطارد اليهود الذين يمتنون اليهما باسباب شتى كما تطارد الوحوش الضارية ، وتأنف ان تجمعها وايام جامعة ؟

ويقول الدكتور طه حسين : « ان هذه القصة (قصة بناء ابراهيم واسماعيل

للكمة وانها جدا العرب العدنانية) أمرها واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي ايضا » ونحن نقول ان قول الدكتور طه (قبيل الاسلام) يعنى قبله بخمسين او بمئة سنة على الاكثر، اذ لانظن ان قبيل تحتل اكثر من ذلك. وانت تعلم ان هذه الكمة كان يعظمها العدنانيون والقحطانيون على السواء، اى من كان منهم من ذرية اسماعيل ومن لم يكن من ذريته، فهل تكفى هذه المدة الوجيزة لترويج فرية كهذه في مثل بلاد العرب الشاسعة الارزاء حتي تصبح الرمز الوحيد لديانها الوثنية

مُعرف العرب بأنهم من أشد الامم محافظةً على قديمهم، وترسم الخطوات أسلافهم فلا يعقل ان فرية يختلقها اليهود للتمكّن من البقاء في ارض غير ارضهم تنشر في بلاد العرب من اقصائها الى اقصائها في مدى نصف قرن او قرن، وتحمل الناس على ضرب آباط الابل اياما وليالى في أشد بلاد الله جدوبة وقحولة، ليحجوا معبدا قبيل انه قد بناه جد بعض قبائلهم. أتدري كم بين الشجر وعُمان وحضر موت وعدن وصنعاء والعراق وبين مكة من الاميال، وما طبيعة الارض التي تسير فيها الجمال، والعقبات التي تصادفها في طرقها المتداخلة، والاطار التي يتعرض لها الناس من المناسر، الكامنة في الكهوف والمغاور، أتكفى والحالة هذه خمسون او مئة سنة لئلا تنشر فرية لا أساس لها في شعب جاهلي عنيف قليل الاهتمام بالدين فيصبح افراد في جميع أصقاع البلاد العربية لافرق بين رجل وامرأة وطفل يعرفون البيت الحرام ويتمنى كل منهم ان يطوف به او يجاوره تاركا اهله وعمله سنين ؟

اللهم ان هذا محال، وان قُدِّر لفرية ان تروج في العرب هذا الرواج الكبير فلا بد لها من زمان طويل، ولا تتناول الا البطائفة التي يجعل جدها الا على بطلان الرواية، اما سواهم ممن لا ناقة لهم فيها ولا جمل كالقحطانيين فلا

يقول الدكتور طه حسين : « ان قريشا في هذا العصر كانت ناهضة نهضة تجارية مادية ونهضة دينية وثنية، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول ان توجد في البلاد العربية وحده سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة

ودياناتهم في البلاد العربية »

ونحن نقول : اما ان قريشا كانت قبيل البعثة المحمدية ناهضة نهضة تجارية مادية فما لا دليل عليه . فان آية « لا يلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف » لا تدل على شيء اكثر من ان قريشا كانت لها رحلتان رحلة في الصيف الى بلاد الروم ورحلة في الشتاء الى اليمن ولا نظن ان طائفة من الناس يقيمون في مدينة ولا يحتاجون الى اشياء من محصولات ومصنوعات البلاد الخارجية . فاذا كان اسكان المريش ورفع وسيوه والواحات رحلات الى القاهرة لبيع بضائهم واخذ بدلها ولا يدل ذلك على ان هذه القرى في دور نهضة تجارية ، ولا على وشك تكوين وحدة سياسية ، فلا نظن ان رحلتي اهل مكة تدلان على اكثر مما تدل عليه رحلات اهل هذه القرى والواحات

اما انتداب قريش لتكوين وحدة سياسية وثنية لتخليص البلاد من مطامع الفرس والروم والحبشة فهذا هو الذي ننازع الدكتور طه حسين فيه ونطلب منه الدليل عليه

هل كان لقريش مركز ممتاز بين العرب من ناحية القوى الحربية او المالية او العلمية او الدينية فتحدثها نفسها ارتكانا على شيء من ذلك باحداث امر جلل في جزيرة العرب لم يكن يحلم به سواها

ان كان لها ذلك المركز من اية ناحية كانت فهل من دلائل تاريخية ، او قرائن ظنية تسمح لنا ان نعزو اليها هذا المقصد العظيم ؟

لم يكن لقريش مركز ممتاز من أية ناحية من نواحي المميزات الاجتماعية غير سدانها للكمة . وهذه السدانة لم تكن حقا خالصا لها غير متنازع فيه ، فانها ليست القبيلة الوحيدة التي تعزى الي اسماعيل بن ابراهيم فتحترك هذه الخطة . ولم يكن حق السدانة معتبرا من نصيب ولد اسماعيل على وجه عام ايضا . فانه لما تزحت بنو خزاعة ، وهم يمنيون لا ينتسبون لاسماعيل ، الى الحجاز في نحر القرن الثاني للميلاد تسلطوا على مكة وأقصوا اهلها الاصليين وهم من بني اسماعيل عن سدانة الكعبة فلم تنازعهم العرب في ذلك ، ولم نسمع انه حدث لذلك حدث بين القبائل ، وبقيت

سدانة الكعبة في يد خزاعة الى القرن الخامس حيث قويت كنانة وهي من القبائل
العدنانية وتفرعت منها قريش فاتفق ان سيد قريش كان في ذلك العهد قصي بن
كلاب بن مرة فتزوج بابنة صاحب سدانة الكعبة الخزاعي تذرعا لوراثته فيها . فلما
حضرت حماء الوفاة اوصى بسدانة البيت لابنته زوجة قصي . فاعتذرت لايها عن
احتمال هذا العبء ، فأوصى بها لابن له اسمه المحترش فابتاع قصي هذا المنصب
منه بمرض قليل فشق ذلك على خزاعة وحدثت بسببه حروب بينها وبين
قريش ، ثم تداعوا الي التحكيم فحكم لقصي . فلما زالت سدانة الكعبة لقريش حتي
جاء الاسلام

هذا مجمل تاريخ سدانة الكعبة ومنه يرى القارىء ان هذه السدانة لم تكن حقا
صريحا لقريش ولا للقبائل العدنانية فان بقاءها في يد اليمنيين بضعة قرون بلا
منازع ، ثم خوف بني خزاعة للمطالبة بها بالسيف يدل على ان المتغلبين كانوا يتداولونها
طلبا للشرف ليس غير

وبدل هذا التاريخ ايضا على ان سدانة الكعبة لم يكن امرها عظيم عند العرب
فان ايضاء صاحبها الخزاعي بها لابنته ثم لابن سفيها له يبيعها بعرض تافه امر فيه نظر .
ولا عبرة بقيام الحرب بين خزاعة وقريش من اجلها فان القبائل العربية كانت
تتناحر لا وهي الاسباب كسبق حصان او عقر ناقة

فان قال قائل ان صحة هذا التاريخ مشكوك فيها قلنا ذلك لا يضيع من قيمة حكمتنا على
تلك السدانة من انها لم تكن ذات خطر عند العرب فانهم هم الذين وضعوا هذا
التاريخ ، ولو كانت هذه الخطة ذات خطر عندهم لما تجارأوا على الخط من قيمتها
بوضع مثل هذه الاسطورة في شانها

ولو كان للسدانة شأن كبير عند العرب لرأيناهم يحترمون قريشا ويمنحونها مكانا
ممتازا بينهم ، ويجعلون لسادتها سدة البيت خطرا عظيما ولكننا رأينا من تاريخهم غير
ذلك ، رأينا ان الحروب كانت تقع بين قريش وغيرها من القبائل على حد سواء .
وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه حرب الفجار قبل ان يتشرف بالرسالة .
وكان سبب هذه الحرب التي لم تكن الاولى من نوعها ان رجلا اسمه اليراض قتل

عروة بن عتبة سيد هوازن فابت ان تقتل به البراض لانه كان رجلا لا قيمة له .
 وطلبت ان تقتل سيدا من قريش . فوقعت الحرب وهزمت كنانة وقريش معا وفي
 ذلك يقول خدش بن زهير وهو من هوازن :

ياشدة ماشدونا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم
 لما رأوا خيلنا نزجي اوائلها آساد غيل حمي اشبالها الأجم
 واستقبلوا بضراب لا كفاء له يبدى من الغول الا كفال ماكتموا
 ولوا سلالا وعظم الخيل لاحقة كما تحب الي اوطانها النعم
 ولت بهم كل محضار ملهمة كأنها لقوة بحنبا حزم

ثم تلاقوا في السنة التالية في يوم سموه يوم شمطة فجمعت كنانة قريشها
 وعبد منافها والاحابيش ومن لحق بهم من بني اسد تحت قيادة حرب بن امية
 فدارت الدائرة على كنانة وقريش واستحرفهم القتل . وفي ذلك يقول خدش بن
 زهير وهو من هوازن :

الم يملغك ما لقيت قريش وحي بني كنانة اذ ابيرا
 دهمناهم باوعر مكفر فظل لنا بعقوتهم زئير

ثم التقوا للمرة الثالثة في يوم يقال له العباء فانهزمت فيه كنانة وقريش ايضا .
 ثم تلاقوا في يوم اسمه يوم شرب فانتصرت فيه كنانة وقريش على هوازن . ثم
 تصادما في يوم اسمه يوم الحريرة فهزمت فيه هوازن كنانة وقريشا
 فلو كانت لقريش مكانة ممتازة من الوجهة الدينية ، لما اجتترأ مجترى على قتالها .
 ولو كان لرؤسائها خطر يفوقون به سواما لما طالبت هوازن بقتل احدهم في ثار
 قد يقول قائل ، جريا على طريقة التشكك الواجبة في هذه المواطن ، ان هذه
 الوقائع والاشعار موضوعة مختلفة ، وضعها الانصار للحط من قيمة القرشيين

نقول يجوز ذلك ، ولا مانع منه ، ولكن الواقع المحسوس الذي لا يمكن التماري
 فيه ان قريشا حين قصدها النبي صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة لم تجد من ينجدها
 من العرب المجاورين لها ودخلها الجيش الفاتح بحركة اشبه بمدورة عسكرية منها
 بوقعة حربية ، فلو كانت هذه القبيلة ذات مركز ممتاز بين العرب لتسارع العرب

لأنجاده خفافا وثقالا ولاحتشد حولها عشرات الألوف من المقاتلة يذودون من يريد
اذلالها والاستيلاء على الكعبة التي هي مجتمع اصنامهم وانصابهم ولم يتركوها لهما على وضم
امام الجيش الفاتح

فلا يمكن ان يقال في هذا الموطن ان العرب كانوا قد خضعت شوكتهم، ومحمدت
حميتهم فلم يعودوا يقوون على إنجاد لئلا يصيبهم من جراء عملهم ما هم في غنى عنه .
لا يمكن ان يقال مثل هذا القول لأن قبيلة هوازن العظيمة المجاورة لمكة ، بعد أن
تم للنبي صلى الله عليه وسلم التغلب على قريش خشيت ان يصيبها مثل ما أصابها
فخشدت رجالها والقت منهم في ساحة الحرب عشرين ألفا وقيل ثلاثين ألفا وشنت
على المسلمين حربا ضروسا لقي فيها المسلمون شدة عظيمة حتى انكشفوا عن رسول
الله متقهقرين وكاد التقهقر ينقلب الي هزيمة عامة لولا كر اهل السابقات الحسنة
واسمائتهم في القتال

فلو كان لقريش منزلة ممتازة عند العرب لتسارعت هوازن وغيرها الي امدادها
ولوجد المسلمون امامهم جيشا عرمرما قد لا يقل عن خمسين الف مقاتل كما هي سنة
البشر قديما وحديثا ، ولا تستعصي على المسلمين فتحتها . ولكن الذي حدث ولا سبيل
الي انكاره ان المسلمين لم يصادفوا امامهم فيها الا زعانف لا بصيرة لهم يقودهم رجال
لا ميزة لهم الا انهم صبروا على الباطل حتى احيط بهم ، ثم تراموا على الاسلام لحماية
حياتهم . لم يؤثر عنهم انهم فعلوا كما يفعل الحماة من الاسمانه في الدفاع والموت في
ساحات القتال ، او اللجأ الي القبائل المجاورة وإثارتها لصد التيار الجارف ، كما فعل
حماة الترك في العهد الحديث اذ تسلاوا الي الاناضول بعد ضياع عاصمتهم . وما زالوا
يتقهقرون أمام المغير الفاتح لا يمكنونه من ناصيتهم حتى رأوا الساعة مناسبة لان يحاكموه
الي الحديد والنار ففعلوا وقازوا بالحسنين معا الحياة المستقلة والذكرى الخالدة

اما من وجهة القوى الحربية فلم يكن لقريش في الجاهلية ما يجعلها بمنزلة ممتازة
تحدثها معها نفسها بزعامة العرب . يدل على ذلك ضعف مقاومتها للدعوة الاسلامية،
وضعف انتقامها ممن كانوا يترصدون لتجارته فان القوة التي كانت ترمى بها الي
ساحات الحرب أمام المسلمين لم تزد عن المئات عدا

واما من الناحية المالية فلم تك قريش في مثل ثروة المناذرة بالعراق ، ولا
الغساسنة بالشام ولا التبابعة باليمن

واما من الوجهة العلمية فقد كانت دون كل الاقطار الواقعة تحت سلطان الدول
المستعمرة ناهيك ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث ولم يكن في مكة غير رجلين او ثلاثة
يعرفون القراءة والكتابة حتي سماهم القرآن بالامين فقال تعالى : « هو الذي بعث في
الامين رسولا منهم »

وبعد ، فان قبيلة لا امتياز لها من الوجهة الدينية ، ولا خطر لها من النواحي المالية
والحرية والعلمية ، على اى سلطان تستند لتولي زعامة العرب ، واحداث وحدة سياسية
وثنية تحرر بها بلادها من الرقبة الاستعمارية ؟

ان التظنى في مثل هذه المسائل الاجتماعية لا قيمة له فكل انسان يستطيع ان
يتخيل الامور على ما يوده ويلائم هواه ، ولكن هنالك امارات وقرائن يمكن الاستدلال
منها على ما يراد الاستدلال عليه ، فان لم توجد هذه الامارات والقرائن كان كل فرض
يمكن ان يقابل بضده

فالدكتور طه حسين يقول ان قريشا هذه كانت في نهضة وانها كانت تحدث
نفسها باقامة دولة مستقلة وثنية تحرر بها البلاد العربية ، فهل هناك امارات وقرائن
تدل على ذلك ؟ هل كانت تبث لها دعوة في القبائل القرية منها والبعيدة عنها ؟
هل احدثت تغييراً ما في شكل ساداتها للكعبة ، اودونت كتابا يفصل امورها الدينية ،
او سنت للحج والعبادة سننا جديدة ما يؤخذ منه انها تتذرع بالعاطفة الدينية لقضاء
ما رزبها الاجتماعية ؟ هل احدثت نظاما للمبادلات وعملت على ايجاد روابط تجارية
بين القبائل تتوسل بها الي الوصول الي مراميها من وجهة اقتصادية ؟ هل ارسلت بمن
يشير حمية القبائل ويشعل فيها جذوة النعرة القومية تذرع الي ايجاد وحدة سياسية ؟
هل حاولت ان تقتدى بنظام الحكومات التي كانت ترحل الي بلادها للتجارة
فشرعت في اقامة حكومة مركزية ، واتخذت لمدينتها شرطة ، ومحام ، وجيشا عاملا ،
تحايلا على ان يصبح نواة لهيئة اجتماعية ؟

شيء من هذا لم يكن ، فكيف يمكن ان يدعي انها كانت في حالة نهضة

سياسية وانها كانت ترمى الى آمال بعيدة من تكوين وحدة دينية وثنية مستقلة تحرر بها البلاد العربية

ولكننا ندعي انها كانت في حالة انحلال ادبي واجتماعي وصل بها الى نهاية أدواره واستدلنا على ذلك بضعف وسائلها في مقاومة الدعوة الاسلامية وبوهن محاولاتها في الدفاع عن بيئتها الاجتماعية ، وتسارع قادتها الى اظهار الاسلام نقاا عند مادهم الخطر استبقاء لحياتهم الشخصية

يقول الدكتور طه حسين : « ان ورود اسمي ابراهيم واسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الي مكة ونشأة العرب المستعربة فيها »

ونحن نقول ان قول الدكتور طه حسين ان ورود اسمي ابراهيم واسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، معناه انه لا يمكن اثبات وجودهما اذا جرى التاريخ على اسلوبه في اثبات وجود الرجال ، وتحقيق الحوادث المعزوة اليهم ، مستقلا عن نصوص الكتب السماوية . لأن التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت استقلالها عن الاديان منذ نحو ثلاثة قرون . فالتاريخ يطلب في اثبات وجود الرجال أدلة حسية ، وآثارا مادية فوق ما تذكره عنهم الكتب الدينية وبخاصة بالنسبة للافراد المتغفلين في القدم كابراهيم واسماعيل . ونحن نرى أن هذا الموقف من العلوم في الاستقلال عن النصوص الدينية ضروري لها لتستطيع ان تؤدي وظيفتها من التحرير والتمحيص مطلقة الحرية ، في دائرة العمل الطبيعية . فلا يجوز لحفظة الاديان الصحيحة ان يكرهوا هذا الاستقلال لها فانها بما تتأدى اليه من نتائج علمية محققة من طرق مادية محضة تؤيد الدين وتصدقه فتتساق النفوس لحبه والاخذ به ، والتأدب بأدبه ، خلافا لما اذا كانت العلوم تابعة للدين فانها تقع تحت وصايه قادته اى تحت وصاية رجال ليسوا من أهلها ، فيرون في كل حركة من حركاتها انحرافا ، وفي كل رأى من آراء الباحثين فيها تطرفا فيقع التنازع بين الهيئتين فان انتصر رجال العلوم عملوا على ملاشاة الدين واهله . فتفاديا من هذا التنازع الضار بالايمان والعلوم معا تراضى

الناس على ان يسير كل منهما مستقلا في طريقه

والقول بأن ابراهيم واسماعيل لم يثبت وجودهما تاريخيا ليس معناه ان التاريخ قرر بانهما لم يوجد ، ولكن معناه انه لا يستطيع اثبات وجودهما اثباتا ينطبق على أسلوبه الحسى ، وهذا العجز من العلم لا ينفي انها كانا موجودين ، وانها بنيا الكعبة

فنحن نحترم هذا العجز من العلم ، ونشجعه على الاعتراف به ، بل ولا نقبل منه ان يدعي علم مالا ينطبق أسلوبه عليه ، وادراك مالا اتصل وسائله اليه ولا يسعنا في هذا المقام الا ان نلاحظ على الدكتور طه حسين انه لم يحسن التعبير عن رأيه في هذه المسئلة فقد كان يستطيع ان يقول مثل ما قلنا فلا يلومه احد

وبعد فنقول :

اذا لم يكن لدينا الى اليوم آثار محسوسة تدل على ان ابراهيم واسماعيل كانا موجودين وعلى انها بنيا الكعبة فان المرجحات التاريخية على وجودهما وعلى صحة ما عَزَى اليهما تكاد تضع هذه المسائل في عداد المحسوسات :

(اولها) لا مانع من العقل يمنع من وجود ابراهيم واسماعيل . فان القائلين بوجودهما لا يزعمون بأنهما كانا مَلَكين ، او كائنين فذيين ، بل يقولون انها كانا رجلين كسائر الرجال يأكلان الطعام ويمشيان في الاسواق . وكل ما عَزَى اليهما من الميزات انها كانا نبيين يدعوان الناس الى توحيد الله وتنزيهه ، والاخذ بالفضائل ، وتجنب الرذائل ، مثلهما في ذلك كمثل جميع الانبياء الذين لا سبيل الى انكار وجودهم التاريخي كموسى وعيسى ومحمد

(ثانيا) انها مذكوران بالاسم في تاريخ أمة عظيمة هي الامة الاسرائيلية وقد اعتبر اولهما جدا أعلى لتلك الامة وثانيهما احد ابنائها . فان لم يكن هو جدّها الأعلى لكان غيره ، فأى مرجح يرجح انه كان غيره ؟

(ثالثها) انه لا يوجد مانع تاريخي ولا جغرافي يمنع من ان يكون ابراهيم نشأ بالعراق ثم رحل الى فلسطين

(رابعها) انه لا يوجد مانع تاريخي ولا جغرافي يمنع من ان يكون ابراهيم زار

بلاد العرب مرة او مرات وترك فيها ابنا له مع امه لسبب من الاسباب
(خامسها) انه لا يوجد مانع مادي يمنع من ان يكون ابراهيم لما زار بلاد العرب
بنى بمكة بيتا للعبادة سُمي فيما بعد بالكعبة ، وهي حجرة واحدة قليلة الارتفاع مبنية
بالاحجار والطين مناسبة لمباني تلك الجهة ، يقوم بعملها بناء واحد ، وقد تهدمت
مرارا ، وأعيد بناؤها وزيدت مساحتها ، ولم يقل احد بانها كانت معلقة في الهواء
او من الاتساع بحيث تسع الالوف المؤلفة ، ولا انها اقيمت من ذهب وفضة ورصفت
ارضها بالجواهر الكريمة

(سادسها) انه لا يوجد مانع من أى نوع كان يمنع من ان يكون اسماعيل قد شب
وترعرع في مكة ولما بلغ مبلغ الرجال تزوج امرأة من قبيلة كانت هناك تسمى بنى
جُرهم وانه رزق منها بأولاد

(سابعها) انه لا يوجد مانع يحمل العرب على انتحال جد اجني عنهم وهم من
أشد العرب نخرا بخلوص عربيتهم . ولم يُنحل اسماعيل من المميزات الادبية والمادية
ما يجعل الانساب اليه من المتأخر التالدة ، ولم ينقل عن العرب في الجاهلية انهم
كانوا يفخرون بانتسابهم الي اسماعيل . وقد فضلوا ، ان يتلقبوا باعدانية نسبة الى واحد
من أجدادهم (عدنان) عن ان يتلقبوا بالاسماعيلية جد هم الاعلى
كل هذه المرجحات ترجح ان ابراهيم واسماعيل كانا موجودين وان الثاني منهما
شب وترعرع ببلاد العرب وتزوج منهم وامتاز نسله عن العرب الفخطانية باسم
العرب العدنانية

ولو حذفنا من التاريخ كل شخص لم ترد على وجوده أدلة حسية ، وآثار مادية
لحذفنا اكثر رجاله المشهورين ولم يبق منهم الا اسماء معدودة
على ان اجماع امة برمتها كاليهودية على تسمية نفسها بالاسرائيلية نسبة الى
اسرائيل وهو يعقوب بن ابراهيم منذ وجودها ، واجماع امة اخرى وهي العربية
على اعتبار بعضها من ذرية اسماعيل مما لا يصح ان يقابل بالتحفظ الا
اذا وجدت قرائن تدل على غير ذلك . وقد رأيت ان القرائن كلها ترجح
صحة ذلك

اما لقول بأن قصة اسماعيل حيلة دبرها اليهود ليستعطفوا قلوب العرب عليهم
فمألا يسيغه العقل للأسباب التي ذكرناها في محلها من الصحف التي سافقت . ونقول
هنا زيادة على ما تقدم انه اذا كان للعدنانية مصلحة في قبول هذه الحيلة فهل للعرب
القحطانية من مصلحة في مشايعتها على هذه الفرية؟

٥

الشعر الجاهلي واللهجات

قال الدكتور طه حسين في فصله الخامس تحت العنوان المتقدم ما ملخصه :
(الرواة مجمعون على ان قبائل العدنانية لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة)
(قبل ان يظهر الاسلام ولكننا لانرى شيئا من ذلك في الشعر الجاهلي . فنرى)
(مطولات امرئ القيس وزهير وعنترة وليبد ليس بينها اختلاف في اللهجة او)
(تباعد في اللغة او تباين في مذهب الكلام . فنحن بين اثنين اما ان نؤمن بأنه لم)
(يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة)
(ولا في المذهب الكلامي ، واما ان نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل)
(وانما حمل عليها حملا بعد الاسلام)

راينا في هذا الكلام

نقول اننا نعجب كما يعجب الدكتور طه حسين من ورود الشعر الجاهلي كله بلغة
قريش مع تباين لهجات القبائل ومع اختلافها في قراءة القرآن نفسه . وقد بقي
هذا التباين في الاسلام بضع قرون . ولكن يدعشنا ان يدخل عن ذلك كبار رواة
اللغة والشعر فلا يلحظون هذا الامر مع انه من البدهيات

الكتاب الثاني

اسباب انتحال الشعر

١

لبس الانتحال مقصورا على العرب

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان مابليخصه:

(يجب ان يتعود الباحث درس الامم القديمة التي قدر لها ان تقوم بشيء من)
(جلائل الاعمال ، وما اعترض حياتها من الصعاب ، ليفهم تاريخ الامة العربية على)
(وجهه ، ويرد كل شيء الى اصله)

(والذين كتبوا في تاريخ هذه الامة انما نظروا اليها كأنها أمة فذة لم تعرف)
(احدا ولم يعرفها احد ، لم تشبه احدا ولم يشبهها احد ، لم تؤثر في احد ولم يؤثر)
(فيها احد ، قبل قيام الحضارة العربية وانبساط سلطانها على العالم القديم)

(والحق انهم لو درسوا تاريخ هذه الامم القديمة وقارنوا بينها وبين تاريخ العرب)
(لتغير رأيهم في الامة العربية ، ولتغير بذلك تاريخ العرب أنفسهم)

(لقد كان شأن الامة العربية كشأن اليونان والرومان تحضرت كما تحضروا)
(بعد بداوة ، وتأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة ، وتجاوزت)
(حدودها الطبيعية كما تجاوزوا ، وتركت كما تركوا تراثا قيما خالدا فيه أدب)
(وعلم ودين)

(وفي الحق ان التفكير الهادى في حياة هذه الامم اثلاث ينتهي بنا الى نتائج)
(متشابهة ان لم نقل متحدة ، وقد أثرت فيه مؤثرات واحدة او متقاربة فانتهت)
(الى نتائج واحدة او متقاربة)

(نريد من هذا ان نقول ان هذه الظاهرة الادبية التي نريد ان ندرسها في)
 (هذا الكتاب ، والتي يجزع لها انصار القديم جزعا شديدا ، وهي انتحال الشعر)
 (ليست مقصودة على الامة العربية وانما تتجاوزها الي غيرها من الامم القديمة)
 (ولا سيما اليونانية والرومانية . وقد انخدع الناس بما حمل على قدمائها من الشعر حتي)
 (كان المهر الحديث واستطاع النقاد ان يردوا الاشياء الى اصولها ما استطاعوا الي)
 (ذلك سبيلا . ومنشأ هذه الحركة النقدية انما هو تأثر الباحثين بمذهب ديكارت)
 (الفيلسفي . وانتشار العلم الغربي في مصر سيقضي بأن يصبح عقلنا غربيا وأن)
 (ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج ديكارت)

(ولقد احب أن تلم الماما قليلا بأي كتاب من الكتب الكثيرة اني تنشر الآن)
 (في اوروبا في تاريخ الآداب اليونانية او اللاتينية ، وان تسأل نفسك بعد هذا)
 (الامام ماذا بقي مما كان يعتقد القدماء في تاريخ الآداب عند اليونان والرومان ؟)
 (ولكنك لا تكاد تجد شيئا من الفرق بين ما كان يتحدث به اسحاق ويرويه)
 (الطبري من تاريخ العرب وآدابهم ، وما يكتبه المؤرخون والادباء عن العرب في)
 (هذا العصر . ذلك لان الكثرة من هؤلاء المؤرخين والادباء لم تتأثر بعد بهذا)
 (المنهج الحديث ولم تستطع بعد ان تؤمن بشخصيتها ، وان تخلص هذه الشخصية)
 (من الاوهام والاساطير)

(واذا كان قد قدّر لهذا الكتاب أن لا يرضي الكثرة من هؤلاء الكتاب والمؤرخين)
 (فنحن واثقون بأن ذلك ان يقلل من تأثيره في هذا الجيل الناشئ فالاستقبال لمنهج)
 (ديكارت لا يمناهج القدماء)

راينا في هذا الكلام

بقول الدكتور طه حسين : « ان الذين كتبوا في تاريخ العرب انما نظروا اليها »

كأنها أمة فذة لم تعرف احدا ولم يعرفها احد ، والحقيقة هو ان الأمة العربية كسائر الأمم القديمة تأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة وتجاوزت حدودها الطبيعية كما تجاوزوا الخ

وانا لا أدري هل يقصد الدكتور بهذا القول الذين تكلموا في تاريخ العرب قبل الاسلام او بعده . فاما تاريخها بعد الاسلام فكل الذين كتبوا فيه لم ينظروا اليها كأمة فذة ، لم تعرف احدا ولم يعرفها احد ، بل أجمعوا بانها تحضرت بعد بداوة ، وتأثرت بالمؤثرات المختلفة وأثرت في غيرها ، وتجاوزت حدودها الطبيعية ففتحت سورية وشمال افريقيا وفارس وما وراء النهر الى حدود الصين ، وفتحت من اوروبا اسبانيا والبرتغال وجزءا من فرنسا الى نهر اللوار ، وأفاضوا فيما تأثرت به من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية ، وفيما أحدثته من الآثار في الأمم مما يملأ اسفار ضخمة

وان كان يقصد الدكتور الذين تكلموا في تاريخ العرب قبل الاسلام فان مؤرخي العرب انفسهم ذكروا عن تحضرها ومدنيتها امورا تكاد تكون خيالية حتي قالوا ان ارم ذات العماد كانت مبنية بالذهب والفضة ولمدينتها سور مرصع بصفائح الذهب الخ الخ

وذكروا عن مملكة تدمر العربية ان سلطانها امتد في عهد ملكتها الزباء الى مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الى انقرة وذكروا ان سعدا ابا كرب ملك اليمن غزا اذربيجان وهزم الترك والروم والفرس وجاز الصين وغنم منها مغانم شتى ، وضرب ابنه يعفر الجزية على القسطنطينية ثم سار الى رومية وحاصرها

وقال ابن خلدون عن جهينة وبلي من بطون بني قضاة ان منازلهم كانت بين ينبع ويثرب ومصر وعلى شواطئ البحر الاحمر ، وانهم فتحوا مصر وبلاد الحبشة والنوبة ومكثوا في هذه البلاد اجيالا الخ الخ

ولو اردنا ان نسرد ما كتبه مؤرخو العرب في هذا الصدد لملائنا منه صحفا . فلذين كتبوا في تاريخ الأمة العربية قديما وحديثا عن الجاهلية والاسلام لم ينظروا

اليها كأنها أمة فذة لم تعرف أحدا ولم يعرفها أحد بل نظروا اليها نظرم الى كل أمة تحضرت بعد بداوة واختلطت بالامم وأثرت فيهم وأثروا فيها

يقول الدكتور طه حسين : « وانتشار العلم الغربي في مصر سيقضي بان يصبح عقلنا غربيا وأن ندرس تاريخ العرب وآدابهم متأثرين بمنهج ديكارت »

نقول اننا لا نظن انه يوجد عقل شرقي وعقل غربي ، وانما نعتقد انه يوجد علم وجهل . وهذا العقل الغربي حينما كان الجهل مخيما على اوروبا لم يغن عن اهلها شيئا . فكانت الشعوب تباع مع اراضيها ، وكان كل مجتمع منها منقسما الى طبقات بعضها يستغل البعض الآخر ، ويسخره لشهواته ، وكان كل من يتجارى على البحث في شيء من العلم والفلسفة بل على طلب الفهم في الدين يلتقى في تنور مسجور . وكان العقل الشرقي اذ ذاك يكشف المساتير للباحثين ، وينير الغياهب للسالكين ، ويبني العلم والفلسفة والسياسة على أساس متين ، و يقيم أركان العدل والمساواة والحرية بين الناس اجمعين

فالعقل لا شرقي ولا غربي وانما هوة قوة إن تولاه العلم أداها الى عليين ، وان قاده الجهل ساقها الى أسفل سافلين

٢

السياسة وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ماملخصه :
 (قلت ان العرب قد خضعوا لمثل ما خضعت له الامم القديمة من المؤثرات التي دعت الي انتحال الشعر والاخبار . والمؤثر الذي طبع الامة العربية بطابع لا يمحي)
 (مؤلف من عنصرين قويين جدا هما الدين والسياسة . ولا سبيل الى فهم التاريخ)
 (الاسلامي الا اذا وضحت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا . فان العرب لم)
 (يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات)

(حياتهم في القرنين الاول والثاني)

(هم مسلمون ظهوروا على العالم بالاسلام فهم محتاجون ان يتميزوا به ويجدوا في)
(اتصالهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان . وهم في الوقت نفسه اهل)
(عصبية ، واصحاب مطامع ومنافع ، فهم مضطرون الي ان يراعوا هذه العصبية)
(ويلائموا بينها وبين منافعهم ومطامعهم ودينهم)

(واذا كانت حياتهم متأثرة تأثر امتصلا بالدين والسياسة وجادة في الاستفادة)
(منهما جميعا فخلق بالمؤرخ السياسي او الادبي او الاجتماعي ان يجعل مسألة الدين)
(والسياسة عند العرب أساسا لبحثه)

(واول ما يجب ان نلاحظه هو الجهاد العنيف الذي اتصل بين النبي واصحابه)
(من ناحية ، وبين قريش واوليائها من ناحية اخرى)

(في اول ظهور الاسلام كان هذا الجهاد جدليا خالصا . وكان النبي يجادلهم)
(بالقرآن فيفهمهم فيزداد عدد اتباعه حتي تكون له حزب . ولكنه لم يكن حزبا)
(سياسيا ذا خطر ولم يطمع في ملك ولا تغلب . وكان كلما قوى هذا الحزب)
(اشتدت مناضلة قريش له حتي اضطره للهجرة الاولى ثم الهجرة الثانية)

(هذه الهجرة وضعت الخلاف بين النبي وقريش وضعا جديدا فجعلت الخلاف)
(سياسيا يعتمد في حله على السيف بعد ان كان يعتمد على الجدل)

(أحس قريش ان الامر تجاوز الاوثان والآراء الموروثة الي السيادة السياسية)
(في الحجاز ، والطرق التجارية بين مكة وبين البلاد التي كانت ترحل اليها ، فاصبح)
(موضوع النزاع ليس مقصورا على ان الاسلام حق او غير حق ، بل صار يتناول)
(الامة العربية او الحجازية لمن تدعن ، والطرق التجارية لمن تخضع . وهذا أدى الي)
(نشوء عداوة بين قريش واهل المدينة « الاوس والخزرج » وكانت علاقتهم ودية)
(قبل الاسلام . واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في)
(بدر ويوم انتصرت قريش في احد واشترك الشعر في هذه العداوة مع السيف)
(فوقف شعراء قريش وشعراء الانصار يتهاجون . وكان النبي يحرض شعراءه)
(ويعدم بالاجر عند الله كما يعد المقاتلين)

(مضت قريش في جهادها وأعانها من أعانها من العرب واليهود. ولكنهما لم)
 (توفق. وامست ذات يوم واذا خيل النبي قد اظلمت مكة. فنظر زعيمها وحازمها ابو)
 (سفيان فرأى الحزم في ان يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا)
 (السلطان السياسي الذي انتقل من مكة الي المدينة ومن قريش الي الانصار ان)
 (يعود الى قريش والى مكة مرة اخرى . فأسلم ابو سفيان واسلمت قريش واصبح)
 (الناس جميعا في ظاهر الامر اخوانا)

(ولعل النبي لو عمر بعد فتح مكة زمنا طويلا لاستطاع ان يحو تلك الضغائن .)
 (ولكننه توفي ولم يضمم قاعدة للخلافة ولا دستورا لهذه الامة التي جمعها بعد فرقة فاي)
 (غرابة في ان تعود هذه الضغائن الي الظهور)

(فلم يكذب النبي يدع هذه الدنيا حتي اختلاف المهاجرون والانصار في الخلافة)
 (اين تكون ولما تكون وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نقر)
 (من قريش ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش . فاذعنت الانصار)
 (وانصرفت قوة الجميع الى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين ايام ابي بكر)
 (والى ما كان من الفتوح ايام عمر . ولكن المقيمين من اولئك وهؤلاء في مكة والمدينة)
 (لم يكونوا يستطيعون ان يذسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم ايام النبي ولا)
 (تلك الدماء التي سفكت في الغزوات)

(وقد حال حزم عمر بين قريش والانصار وبين الفتنة . فقد نهى عن رواية)
 (الشعر الذي تهاجي به المسلمون والمشركون امام النبي . وهذه تثبت رواية اخري)
 (وهي ان قريشا والانصار تذاكروا ما كان قدهيجا به بعضهم بعضا ايام النبي وكانوا)
 (حراصا على روايته يحدون في ذلك من اللذة والشهامة مالا يشعر به الا صاحب)
 (العصبية القوية)

(وقد ذكر الرواة ان عمر مر ذات يوم فاذا حسان في نقر من المسلمين ينشدهم)
 (في المسجد فاخذ باذنه وقال أرغأ، كرغأ البعير؟ قال حسان اليك عنى يا عمر فوالله)
 (لقد كنت انشد في هذا المكان من هو خير منك فيرصى . فمضى عمر وتركه. وفقه)
 (هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ان الانصار كانوا موتورين فسيكانوا يتعززون)

(بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش قبل موت النبي . وعمر قريشي تكره عصبة ان)
 (تزدري قريش ، وكان فوق هذا اميرا حازما يريد ان يؤسس ملك المسلمين على شيء)
 (غير العصبية فلم يظفر بكل ما يريد)

(وتحدث الرواة ان عبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب قدما المدينة ايام)
 (عمر فذهبا الي ابي احمد بن جحش وطلبا اليه ان يحضر حسنا لينشده الشعر . فلما)
 (جاء حسان اخذا ينشدانه مما قالت قريش في الانصار حتي استقشاط . ولما فرغا)
 (تركاه ومضيا الى مكة . فذهب حسان الى عمرو وقص عليه الخبر . فأرسل عمر من)
 (ردهما . فلما مثلا بين يديه قال لحسان أنشدكما ما شئت . فأشدهما حتي اشتفى .)
 (وقال عمر بعد ذلك قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لانه يوقظ الضغائن فاما)
 (اذا ابوا فاكتبوه)

(قال ابن سلام : نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية فاستكثر)
 (منه الاسلام . وليس من شك عندي في انها استكثر من هذا الشعر الذي يهجي)
 (فيه الانصار)

(ولما تولى عمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل ابا سفيان خطوة)
 (اخرى . فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب . بل اصبحت في بني امية خاصة .)
 (واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبية الامويين ، واشتدت العصبية)
 (الاخرى بين العرب . وهدأت حركة الفتح واخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض .)
 (وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عمان ، وافتراق المسلمين ، وانتهاء الامر كله)
 (الى بني امية)

(في ذلك الوقت فشلت الخطة التي كان يخططها عمر ، وهي منع العرب ان)
 (يتذاكروا ما كان بينهم من الضغائن قبل الاسلام . وعاد العرب الي شر مما كانوا فيه)
 (من التنافس في جميع الامصار الاسلامية . ويكفي ان اقص عليك ما كان من)
 (تنافس الشعراء من الانصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنة)

(لملك قرأت ان عبد الرحمن بن حسان شذب برملة بنت معاوية فاصطنع معاوية)
 (الجلم وقال له ابن انت من اختها هند . واما يزيد فكان صورة لجدته ابي سفيان .)

(كان رجل عصبية وقوة وفتك وسخط على الاسلام وما منه للناس من سنن)
 (فاغرى كعب بن جعبل بهجاء الانصار فاستغفاه وقال اتريد ان تردني كافرا)
 (بعد اسلام ؟ فاغري الاخطل وكان نصرانيا فاجابه وهجا الانصار)

(ويزيد هذا هو صاحب وقعة الحرة التي انتهكت فيها حرمان الانصار في)
 (المدينة والتي انتقمتم فيها قريش من الذين انتصروا عليها في بدر والتي لم تقم)
 (للانصار بعدها قائمة . ويقول الرواة انه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدر اي)
 (من الذين اذلوا قريشا)

(وقد طلب عمرو بن العاص من معاوية ان يحواسم الانصار . فقال الانصاري)
 (الوحيد الذي شايع بني امية وهو النعمان بن بشير :)

(يأسعد لا تجب الدعاء فلما لنا) نسب نجيب به سوى الانصار)
 (نسب تخيره الاله لقومنا) أثقل به نسبنا على الكفار)
 (ان الذين ثووا ببدر منكم) يوم القليب هم وقود النار)

(فسمع معاوية هذا الشعر ولام عمره على تسرعه ليس غيرة . وكان اصحاب)
 (العصبية القرشية يتفاوتون تفاوتا شديدا فكان منهم المسرف كيزيد ، والمقتصد)
 (كمعاوية . ومنهم من يتجاوز الاقتصاد الى العطف على الانصار والراء لهم كالزبير)
 (ابن العوام . فقد روى انه مر بنفر من المسلمين فاذا فيهم حسان ينشدونهم)
 (غير حافلين بما يقول فلامهم وذكر موقع حسان من النبي . فقال حسان يمدحه ،)
 (واحب ان تلتفت الى اول هذا الشعر فهو حسن الدلالة على ما اريد ان اثبته)
 (من دخول الحزن على نفوس الانصار لهذا الموقف الجديد الذي وقفته منهم)
 (قريش :)

(اقام على عهد النبي وهديه) حواريه والقول بالفعل يعدل)
 (اقام على منهاجه وطريقه) يوالى ولى الحق والحق اعدل)
 (هو الفارس المشهور والبطل الذي) يصول اذا ما كان يوم محجل)

الخ الخ

(فانظر الى هذين البيتين في اول المقطوعة كيف يمثلان ذكر حسان لعهد)

(النبي وحزنه عليه وأسفه على ما فات الانصار من موالاه النبي لهم)
(وانصافه اياهم)

(وقد ذكرت لك ما كان من هجاء الاخطل للانصار . فقيـل ان النعمان بن
(بشير غضب لهذا الهجاء وانشد بين يدي معاوية ابيا تا نرويها لك فسترى فيها)
(مثل ما رأيت في أبيات حسان من أثر هذه العصبية التي تضيف الي الشعراء ما لم
(يقولوا . فقال النعمان بن بشير لمعاوية :)

(معاوى ان لاتعطنا الحق تعترف لحي الازد مشدود عليها العائـم)
(أيشتمنا عبد الارقم ضلة وماذا الذي تجدى عليك الارقم)
(فما لي ناز دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم)
(وراع رويدا لانسمنا دنية لعلك في غير الحوادث نادم)
(متي تلق منا عصبية خزرجية او الاوس يوما تخترمك المحارم)
(وتلقاك خيل كالفطامستطيرة شماطيط ارسال عليها الشكائم)
الى ان قال :

(فما انت والامر الذي لست اهله ولاكن ولي الحق والامر هاشم)
(اليهم يصير الامر بعد شتاته فمن لك بالامر الذي هو لازم)
(فانت ترى الي اى حد كانت العصبية قد انتهت بقريش والانصار، وانت
(ترى نأثيرها في الشعر والشعراء ، وانت ترى من هذين الاستطراذين كيف استغلت)
(العصبية الزبيرية والهاشمية شعر حسان وشعر النعمان بن بشير لمناهضة خصومها .)
(ولا اريد ان ادع هذه العصبية دون ان اذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان وعبد
(الرحمن بن الحكم اخي الخليفة مروان من هذا النضال العنيف الذي لم يبق لنا منه)
(الا آثار ضئيلة)

(كان الانصار يتحدثون ان هذين الرجلين كانا صديقين وكان عبد الرحمن بن
(حسان يحب امرأة صاحبه الفرشي فبلغ ذلك صاحبه فراسل امراء عبد الرحمن)
(ابن حسان وانبأت هذه زوجها فاحتال حتي حمل امرأة صاحبه على ان تزوره في بيته)
(واخفاها في احدى الحجـر . واحتالت امرأته حتي حملت الفرشي على ان يزورها)

(فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها فارادت ان تخفيه فدخلته في احدي)
 (الحجر فاذا هو يرى امرأته . ففسد الامر بين الصديقين . واما قریش فكانت)
 (تروي القصة نفسها ولكنها تعكسها وتظهر صاحبها مظهر الوفي لصديقه فلا يجيب)
 (على رسائل امرأته رعاية لحمة الصديق)

(وقد تجاوز الامر هذين الشاعرین فاستعان القرشي بشعراء من مضر وربيعة)
 (ثم انتهى الامر الى معاوية فأرسل الي واليه على المدينة سعيد بن العاص بان)
 (يضرب كلا من الشاعرین مئة سوط . وكان سعيد عطوفا على الانصار . وكانت)
 (بين سعيد وعبد الرحمن بن حسان مودة فكره ان يضرب به فعطل امر معاوية . فلما)
 (خلفه على ولاية المدينة مروان بن الحكم ضرب عبد الرحمن بن حسان مائة سوط ،)
 (فكتب للنعمان بن بشير بدمشق شعرا ، فدخل هذا على معاوية وذكر له ان سعيدا)
 (عطل امره وأن مروان اتقذه في الانصارى وحده . فامر معاوية مروان ان)
 (يضرب اخاه فضر به خمسين سوطا واستعفى عبد الرحمن بن حسان في الباقي فعفا .)
 (ولكنه اخذ يذبح في المدينة ان مروان قد ضربه حد الحر مئة سوط وضرب)
 (اخاه حد العبد خمسين . فشقت هذه المقالة على عبد الرحمن بن الحكم وطلب الى)
 (أخيه ان يتم عليه المئة ففعل)

(ولقد يستطيع الكاتب السياسي ان يضع كتابا خاصا ضمخا في هذه العصبية)
 (بين قریش والانصار وما كان لها من التأثير في حياة المسلمين ايام بني امية ، لا نقول)
 (في المدينة ومكة ودمشق بل نقول في مصر وافرقيما والاندلس . ويستطيع)
 (الكاتب في تاريخ الادب ان يضم سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين)
 (قریش والانصار من التأثير في شعر الفرقيين الذي قالوه في الاسلام ، وفي الشعر)
 (الذي انتحلله الفرقيان على شعرائهم في الجاهلية . وقد تجاوزت العصبية هؤلاء)
 (الي العرب كافة . فتعصب العدنانية على اليمانية ، وتعصبت مضر على بقية عدنان)
 (وتعصبت ربيعة على مضر ، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية)
 (والتميمية والقرشية . وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر .)
 (وقل مثل ذلك في اليمن فقد كانت للازد عصبيتها ولحمر عصبيتها ولقضاعة عصبيتها)

(وكانت هذه العصبية تشعب وتتفرع وتشكل بشكل الظروف السياسية)
 (والاقليمية التي تحيط بها . فلها شكل في الشام وآخر في العراق وثالث في خراسان)
 (ورابع في الاندلس . وانت تعلم حق العلم ان هذه العصبية هي التي ازلت سلطان)
 (بني امية لانهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد محو العصبية واراها ان يعتزوا)
 (بفريق من العرب على فريق . قوا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فادالت منهم بل)
 (ادالت من العرب للفرس)

(واذا كان هذا تاثير العصبية في الحياة السياسية فانت تستطيع ان تتصور)
 (هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف تحرص كل واحدة منها على)
 (ان يكون قديمها في الجاهلية خير قديم . وقد ارادت الظروف ان يضيع الشعر)
 (الجاهلي لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد . فلما كان ما كان من حروب الردة ثم)
 (الفتوح ثم الفتن قتل من الرواة والحفاظ خلق كثير . ثم اطمأنت العرب في الامصار)
 (ايام بني امية وراجعت شعرها فاذا اكثره قد ضاع ، واذا اقله قد بقي ، وهي في)
 (حاجة الى الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطربة فاستكثر من الشعر ونحلتها)
 (شعراءها القدماء)

(وقد كان القدماء يحسون كما نحس ان هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين)
 (اكثره منحول ولكن مناهجهم في النقد كانت اضعف من مناهجنا فكانوا يبدؤون)
 (ثم يقصرون عن الغاية)

(ومهما يكن من شيء فان هذا الفصل ينتهي بنا الى نتيجة نعتقد انها لا تقبل)
 (الشك وهي ان العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت اهم الاسباب)
 (التي حملت العرب على انتحال الشعر و اضافته الى الجاهليين وقد رأيت ان القدماء قد)
 (سبقونا الى هذه النتيجة)

راينا في هذا الكلام

(قال الدكتور طه حسين : « المؤثر الذي طبع الامة العربية بطابع لا يحصى مؤلف

من عنصريين قوين جدا هما الدين والسياسة . ولا سبيل الى فهم التاريخ الاسلامي الا اذا وضعت مسألة الدين والسياسة توضيحا كافيا . فان العرب لم يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرن الاول والثاني »

ونحن نقول : لم يكن العرب بدنا من الامم في الاشتغال بالدين والسياسة فليس في العالم أمة قديمة او حديثة لم يعمل هذان المؤثران في حياتها عملا مستمرا . فالدين يستغرق جميع ميولها الادبية ، ومراميتها المعنوية ، ومثلها العليا ، والسياسة تستوعب جميع جهودها للبقاء حرة مستقلة ، وكل مساعيها لاقامة حكومة منتظمة قوية . فأى أمة من الامم القديمة والحديثة عرّضت على عقلك أمورها فلا تجدها تخلو عن التأثير هذين المؤثرين الا ما يُعرف عن بعض الامم الاوربية منذ نحو قرن فانها بدأت تدفع تأثير الدين عنها . والمراد بالدين هنا رجاله والقائمون عليه ، لا الدين نفسه ، فالنفوس والعقول لا تزال في شغل شاغل به تقيا واثباتا ، بحثا وتمحيصا . ناهيك ان في اوروبا وامريكا اليوم اكثر من ثلاث مئة مجلة تبحث في الروح وخصائصها وخلودها

وقد تحفظنا فقلنا (الا ما يُعرف عن بعض الامم الاوربية) ذلك لان كثيرا منها لا يزال المؤثر الديني فيها على أشد ما يكون . فهذه ارنلدة كادت تهلك منذ سنتين من جراء النزاع الديني بين بروتستانت واولستر وكنوليك بقية الجزيرة فيما يتعلق بتبعيتها او عدم تبعيتها للدولة الانجليزية . وهذا المؤثر الديني لا يزال حيا في البلاد البلقانية ، وفي مكسيكا وامريكا مشكلة دينية بين البروتستانت والكنوليك كادت توقعها في حرب مع الولايات المتحدة

اما المؤثر السياسي فلا اريد ان احدثك عنه بشيء فأنت خبير بأنه قد استوعب جهود الجماعات والافراد منذ عرف الاجتماع ، ولا يزال يستوعبها ما دام الاجتماع والنظام العالمي قائما . وهو اليوم على أشد ما يكون بنسبة انتشار الديموقراطية . فقد جاوز رجال السياسة الأعلام الى سائر الافراد ، وتخطاهم الى طلاب المدارس ، وصحية المسكاتب ، وأغليمة الأزقة . واخترق كل هذه الطبقات الى فلاحات الحقول ،

وخدمات الدور

فاذا كان الاسلام قد اوقع العرب منذ ظهر تحت تأثير هذين المؤثرين ، الدين والسياسة ، فيكون معنى ذلك انه نقلهم الي الطريق التي تقوم عليها الامم المتمدنة ، وتؤدي بالجرى عليها الى كمالها المقدر لها كما هو مشاهد ، بعد ان كان لاشغل لهم الا التناهب والتناحر ، وقصر الجهود على السفساف والصغار . وثمرة هذا الانتقال ظهرت حتي بهرت الانظار . فقد كانوا قبل الاسلام خاضعين للامم الاستعمارية ، او هائمين على وجوههم في القفار على حالة بدوية . فلما نقلهم الاسلام الي هذه الطريق ، طريق الشغل بالدين والسياسة اجتمعوا بعد فرقة ، وأثروا بعد فاقة ، وامتد سلطانهم على اكثر المعمور ، واصبحوا دولة آلت اليها خلافة الله في الارض

يقول الدكتور طه حسين : « ان العرب لم يستطيعوا ان يخلصوا منذ ظهر الاسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرن الاول والثاني » ونحن نقول : بل لم يستطيعوا ان يخلصوا منهما الى اليوم ، ولن يخلصوا منهما ما دامت للروح حاجة فيما وراء المحسوسات ، وما دامت بهم حاجة الى حكومة حكيمة تدبر امورهم ، والي مكان يشغلونه بين الامم

ولست ارى ان تأثير المسلمين بهذين المؤثرين في القرنين الاول والثاني كان أشد من تأثيرهم بهما في القرون التي تلتها فان نشوء الفرق الاسلامية التي أربت على السبعين ، وتنازعها في فهم الدين ، وتنافسها في اجتذاب المشايخين ، وقع اكثره في القرن الثالث وما بعده . وظهور الفتن الخاصة بالخلافة والخلفاء ، وتغلب الفرس والديلم والترك المسلمين على اكثر الممالك الاسلامية ، وتجاذبهم اطرافها بالأيدي المسلحة والجيوش الجرارة ، وقيام الدول وسقوطها بين عشية وضحاها ، وما اقتضاه كل ذلك بين المسلمين من الاشتغال بالدين والسياسة ، حصل كله في القرن الثالث وما يليه

فاما ان المسلمين كانوا يمتزجون بدينهم وهم في الوقت نفسه اهل عصمية وأصحاب مطامع ، وكانت حياتهم متصلة بالدين والسياسة ، وان المؤرخ السياسي او الادبي او الاجتماعي يحب ان يجعل الدين والسياسة اساسا لبحثه في احوال العرب ، فهذه

الخلاص كانت لجميع شعوب العالم . فاليهود قد ظهروا باليهودية واعتزوا بها ، واتصلت حياتهم بحياتها اتصالا وثيقا ، وما خرجوا من مصر وتاهوا في شبه جزيرة طور سيناء ، وفتحوا فلسطين ، وتنقلوا في ادوار الاجتماع تحت حكم القضاة ثم الملوك الا تحت تأثير الدين والسياسة . وما اصابهم ما اصابهم من القسمة والتفرق في الارض ، وما لقوه من الاضطهاد الشنيع والمذابح المنكرة الا بسبب دينهم وسياستهم . فلا سرائليون يعتبرون من هذه الوجهة مثالا يضرب في هذا الموطن

والمسيحيون قد ظهروا بالمسيحية واعتزوا بها ، واتصلت حياتهم بها اتصالا محكما ، وظلمت اوروبا تحت السلطان المطلق لقادتها نحو الف سنة ثم ظهرت البروتستانتية ونجحت بسببها الحروب الدينية قرونا اخرى حتى القرن التاسع عشر ولا اريد ان احدثك عن البرهمنية الهندية والبوذية التي نشأت اصلاحا لها والزرادشتية الفارسية والكونفسيوسية الصينية وغيرها فكل هذه الامم استوعب الدين منها كل جهودها واتصل دينها بسياستها اتصالا اكيدا وكان من اثره عليها ما تفيض به توارينها اليوم

يقول الدكتور طه حسين « بدأ الجهاد بين النبي وقريش جدليا ثم لما هاجر الى المدينة ووجد له فيها انصارا اعتمد الجهاد على السيف وتجاوز الخلاف كون الاسلام حقا او باطلا الى النزاع على حكم الامة العربية او القبائل الحجازية ومسير الطرق التجارية »

ونحن نقول هذا صحيح فقد بدأ الجهاد بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش جدليا ، ثم لما اشتدت وطأة الاضطهاد على رسول الله ومن آمن من قومه فاضطر اكثرهم ان يهاجروا الى الحبشة فرارا بدينهم . فزادت وطأة الاضطهاد شدة حتى أدت الى تحالف قريش على مقاطعة المسلمين فاضطروا للجلاء عن مكة وسكنى بعض شعابها مدة عانوا اشد ضروب الحرمان . ثم عادت قريش الى معاملتهم فعادوا الى دورهم ، ولكن الاضطهاد لم ينقطع ثم اتفق ان شرح الله صدر اهل المدينة وهم قبيلتنا الاوس والخزرج القحطانيتين الى الاسلام ، ودعانا النبي صلى الله عليه وسلم

ليقيم بين ظهرانيهم . واتفق ان قريشا كانت اتفقت على قتله ، فتسال هو وصاحبه متكررين حتى خرجا من مكة وتبعتهما قريش فليجآ الي بعض الغيران ثم تابعا سيرهما الي المدينة فوصلها سالمين بعد ان لبث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو قومه فلا يجيبونه . فلما آتس رسول الله من الاوس والحزج قبولا الى تأييده بالقوى المسلحة دفعهم الى الجهاد فحدثت وقعة بدر التي انتصرت قبضة من المسلمين عددهم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا على جيش يقدر بنحو الف مقاتل وكان ذلك في سنة ثلاث من الهجرة . ثم تلتها وقعة احد التي انتصرت فيها قريش على المسلمين ولكنها لم توفق لان تستغل انتصارها بتعقبهم الي المدينة واستئصالهم كما كان هذا غرضها من قبل

وفي سنة اربع او خمس خرج ابوسفيان بن حرب قائد قريش في اربعة آلاف مقاتل وخرجت معه بنو سليم وبنو اسد وبنو غطفان وبنو مرة وبنو اشجم فتم عددهم عشرة آلاف مقاتل . فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم بحفر خندق حول المدينة وجعل عليه المقاتلة فعز على المتحالفين اقتحامه واتفق ان هبت ريح عاصفة أضرت بمعسكرهم فاضطروا الي رفع الحصار عن المدينة

وفي سنة ست من الهجرة خرج النبي صلى الله عليه وسلم في الف وخمس مئة من اصحابه قاصدا مكة معتمرا . فاجتمعت قريش في دار ندوتها وقررت منعهم من دخول مكة ، وكان في استطاعة المسلمين ان يقتحموها عنوة ويبيدوا قريشا . فقد كان ادركهم الوهن باسلام اكبر زعمائهم فيقيم هو ومن معه بمكة ثلاثا عليهم سلاح الراكب السيوف في القرب والقسي ، وان توضع الحرب بينهم عشر سنين ، وان يأمن بعضهم بعضا

فقل النبي صلى الله عليه وسلم راجعا الي المدينة راضيا بهذه المعاهدة التي عدها جمهور اصحابه مهينة لهم ومزرية بكرامتهم مع قدرتهم على سحق عدوهم والفراغ منه نهائيا . فكان من ثمرتها ان اختلط المشركون بالمسلمين اذ جاء الاولون الي المدينة لقضاء بعض مصالحهم ، وذهب الآخرون الي مكة لمثل ذلك فتعارف الطرفان ، ورأت قريش من امر المسلمين ما كانت لاتتوهمه فدخل كثير من زعمائهم في الاسلام

كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما . واعتزم كثير ممن بقي قبول الاسلام ديننا لهم عند سبوح الفرصة . فحدث ان بعض حلفاء قريش تعدوا على بعض حلفاء رسول الله فعدّها النبي صلى الله عليه وسلم نقضاً للمعاهدة واعتزم غزو مكة فبلغ ذلك قريشاً فها لها الامر لتحقيقها من عجزها عن مقاومة المسلمين . فارسالت زعيمها أبا سفيان الى المدينة ليرجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يغضي عما حدث ويمد في أجل الهدنة . فلم يقبل . فتوسل بكثير من كبراء المسلمين فلم يقبلوا التوسط . فآب الى قومه فأخبرهم فاضطربوا واهلّوا لهذا الامر وما هي الا ايام حتي خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأس عشرة آلاف مقاتل من رجاله فوجه خالد بن الوليد الذي كان قبل قليل قائداً من اكبر قواد قريش الوثنية على رأس فرقة من الفرسان لاقتحام مكة من أسفلها ، وامر الزبير بن العوام ان يدخلها برجاله من كيداء . فلما وصل خالد الى أسفل مكة وهمّ بدخولها اعترضه قوم من بني بكر وبني الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل كانت استنصرت بهم قريش فقاتلهم خالد وقتل من بني بكر نحو اربعة وعشرين ومن هذيل اربعة فانهزموا وتحصنت طائفة منهم بالجبال وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزام وابوسفيان : يا معشر قريش علام تقتلون انفسكم من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن فحملوا يقتحمون الدور ويغلقونها عليهم

اما ابوسفيان هذا فقد كان خرج يتجسس اخبار الجيش القادم فقبض عليه بعض الحرس واوفده للنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم قبل وصول رسول الله الى مكة

فلما تم الفتح اخذ الناس يدخلون في الاسلام افواجا وامر النبي بهدم الاصنام التي كانت بالبيت . وكاد هذا الفتح يكون مفضيا الى خضوع جميع المشركين لولا ان بني هوازن دفعها الحماسة الجاهلية لمقاومة هذا التيار الاسلامي الجارف فحشدت من رجالها نحو عشرين الف مقاتل وسارت بهم لمهاجمة المسلمين فلقيها النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه الذي فتح به مكة فهزمهم بعد قتال عنيف واستولى على جميع ما كان لهم وبذلك انتهت كل مقاومة من المشركين واصبحت بلاد العرب كلها

اسلامية طوعا وكرها

فانت ترى من هذا البيان ان قریشا لم تقا تل النبي صلى الله عليه وسلم قتالا جديا يصح ان يستنتج منه انه كان تناحرا بين طائفتين لنصر دين على دين اولضمان سلامة طريق تجارية ضرورية لحياة احدى الجماعتين . فغزوة بدر حدثت بسبب ما اشيع من ان المسلمين استولوا على تجارة قریش فخرجت فرقة تقدر بألف رجل لاستردادها . وغزوة احد شنّها المشركون للاخذ بثأر من قتل منهم في بدر . وغزوة الخندق كانت باغراء نجر من اليهود منهم سلام بن مشكم وابن ابي الحقيق وحي بن أخطب خرجوا من خيبر وقدموا مكة وحرصوا قریشا على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها وتعهدوا ان ينضم اليهود اليهم . فلبت قریش دعوتهم وقصدوا المدينة في نحو عشرة آلاف مقاتل كما قدمنا فلما حاصروا المدينة ووجدوا الخندق حولها وخرجت عليهم العاصفة اتخذوا هذه الحادثة عذرا لعودتهم بدون قتال . ولم تبد قریش بعد هذه الرجعى اقل حركة لمحاربة المسلمين ولم يؤثر عنها في تلك انواقم الثلاث الماضية مثل ما يؤثر عن الطوائف الموتورة في دينها وديناها من غليان الصدور بالسخائم ، واضطرام النفوس بالضغائن ، وابلأغ الحرب الى أقصي شدتها ، والذهاب بالصبر والثبات الى مثل ما يروى عن المستبسلين والمستميتين في الدفاع عن وجودهم . سمعنا ان قریشا استنفرت بعض من حولها من العرب للحرب ليعينوها على الاخذ بالثأر او لنصرة اوثانها ومعبوداتها ولكننا لم نسمع قط انها استنفرت البعيدين عنها كما يفعل الذين تلتهب في قلوبهم نيران الحمية . ولم تذكرهم بضرورة تأمين الطرق التجارية ، ولم بنقل اليها انها قامت بنشر دعوة حارة ضد المسلمين تصلح لجمع كتلة من المحاربة تتمكن بهم من عمل شئ جدى . ذلك لانها لم تكن من العرب على ما وصفها به الدكتور طه حسين ، ولم يكن لاقطاع الطرق الاقتصادية في نظرها كبير خطر يدفعها للاستماتة في الدفاع عنها

لقد كانت بلاد العرب كلها في عهد الجاهلية اشبه بدار حرب فتجارة قریش على تفاهة قدرها وتجارات غيرها من القبائل كانت في حاجة الى الحماية سواء كان طريقها ساحل البحر الاحمر أو العراق

أليس يدل هذا الفتور من قريش في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعجزها عن جمع أكثر من عشرة آلاف من العرب المحالفين لها على أنها لم تكن كما يقول الدكتور طه حسين «نيعة الحوزة» ، عزيزة الجانب ، تحدث نفسها بجمع كلمة العرب لتكوين دولة وثنية مستقلة تطرد الأجانب من بلادها ؟

ثم ألا يدل عدم اجتماع العرب على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسفه أحلامهم ، ويسب أصنامهم ، ويتوعدهم بالفناء على أنهم كانوا منصرفين عن أمور دينهم ودنياهم ، وقانعين من العيش بما هم فيه من التناهب والتناحر ، ومن الاجتماع بما هم عليه من التنافر والتدابر ، على مثال الوحوش الهابجة ، والكواسر الهائمة ؟

ألا يدل تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناصية الأمة العربية كلها حاضرها وباديها ، عدائها وقحطائها ، بواسطة قبضة من رجال ذوى إيمان صحيح على أن هذه الأمة كانت لهما على وضم ، وأنها كانت من الانحلال ، وتفكك الاوصال ، وقلة المبالاة بدينها ودنياها بحيث لا تضرب ضربتين أو ثلاث ضربات حتى تتخذى صاغرة ، وتستكين خاضعة ؟

يقول الدكتور طه حسين : « وهذا أدى الى نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة ، واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر . ومضت قريش في جهادها ولكنها كسرت في آخر الامر . فنظر زعيمها وحازمها ابو سفيان في الامر فرأى ان يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة الى المدينة ومن قريش الى الانصار ان يعود الى قريش والى مكة مرة اخرى »

ونحن نقول اما نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة فصحیح وسببها انتصرهم للنبي صلى الله عليه وسلم . اما قوله واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر . فكلام ان ساغ من ناحية كتابية شعرية فلا يسوغ من وجهة اجتماعية علمية تتطلب تتبع الاسباب والعلل ، وعزو الحوادث الى عواملها الحقيقية . والحق

ان الذى انتصر فى بدر هي قريش المسلمة على قريش الوثنية . واما الانصار فكان مكانهم فى هذه الحوادث مكان المعين المالى . ليس غير . أترى لو قمت فرنسا فتنة الدروز بجنود مغربية او ارمنية او سنغالية يصح ان يقال انتصر المغاربة او السنغاليون او الارمنيون على الدروز، فى حين ان الحرب كانت لمصاحبة فرنسا، والروح التي تحركها روح فرنسا، وانعرض من اشعال نيرانها تأييد مزاعم فرنسا فى تلك البلاد ؟

فاذا صح لقريش ان تحقد فلتحقد على ابنائها محمد واصحابه الذين كفروا بالهتيا، وانفصلوا عن جامعها، واخذوا بديانة غير ديانها، وانتهجوا فى الحياة طريقة غير طريقها، واغروا اصدقاءها على عداوتها

هذا ما يقتضيه علم الاجتماع الذى يربط العلل بمعلولاتها، والاسباب بمسبباتها، والا فقد كان الاوس والخزرج فى غفلة عن الاسلام، وفى غنى عن عداوة قريش، ولولا محمد واصحابه لبقوا على ما كانوا عليه ماشاء الله ان يبقوا، فالروح المدبر لهذا الامر هي قريش المسلمة لا اهل المدينة ولا غيرهم ممن يلتحق بالمسلمين ويبقى فيهم

واكن الدكتور طه حسين رتب هذه المقدمات وتسامح فى درس علل هذه الحوادث على الاسلوب العلمى، وخالف العرف وطبيعة الاشياء لخدمة غرض ادبي محض هو تعليل الاختلاق فى الشعر الجاهلى . فكان مثله كمن يشعل مدينة برمتها لياخذ منها قبسا . وليس هذا من العمل الصالح فى شئ

اما قوله : « فنظر زعيمها وحازمها ابوسفبيان فى الامر فرأى ان يصانع ويدخل فيما دخل فيه الناس لعل هذا السلطان السياسى الذى انتقل من مكة الى المدينة، ومن قريش الى الانصار ان يعود الى قريش والى مكة مرة اخرى » فهو كلام خال من التحقيق العلمى، ومتسامح فيه كل التسامح . فان اباسفبيان هذا الذى يصفه الدكتور طه حسين بالحزم وبعد النظر كان بعد اسلامه يعمل على الاجهاز على مابقى من آمال قريش الوثنية وعلى تأييد قريش المسلمة . فقد شهد حرب الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى في قتال اهلها بلاء حسنا حتى فقتل احدي عينييه . ثم

وجهه النبي صلى الله عليه وسلم لهدم صنم بني ثقيف . وقد لزم الانقياد حتي انتقل رسول الله الي الرفيق الاعلى . وحافظ على اخلاصه مدة ابي بكر . ولما تولى عمر الخلافة وجهه الي اليرموك لقتال من هنالك من متنصرة العرب ووثنيهم فأبلى احسن بلاء فيها حتى فقت عينه الثانية فبقى كفيف البصر بقية مدة عمر وشطرا من خلافة عثمان ، لم يلاحظ عليه غير الطاعة والولاء حتي توفي . فلو كان ابو سفيان هذا يطوف برأسه مثل تلك الاحلام لالتجأ قبل سقوط مكة مع طائفة من كرام رجاله الي بعض القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية كقبيلة هوازن مثلاً كما يفعل القادة الذين يكافون لتأييد المبادئ العالية ، بل كما يفعل القادة من ذوى الخبرة الحربية لاسيما وقد اصرت قبيلة هوازن على وثنيها وجمعت للنبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة جيشا جرارا قدره عشرين وبثلاثين الف مقاتل ، ودفعت بهم لمحاربتة ، فحدثت وقعة حنين المشهورة التي اعتبرت من اشد الوقائم هولاً اذ انكشف فيها المسلمون في اول صدمة وكاد الامر يفضى الي هزيمة منكرة لولا كرة صادقة كرها اهل السابقات الحسنة في ذلك اليوم

اما وقد استسلم ابو سفيان ودخل فيما دخل فيه الناس ، وقام بهدم بعض الاصنام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وحارب معه ومع خلفائه اعداء الاسلام ، وعرض نفسه للهلكة في هذا السبيل حتى فقد عينيه فلا يصح ان يقال عنه انه كان حازم قريش ورجلها الفذ ، وانه كان ينتظر ان يعود لقريش الوثنية مجدداً القديم . أي مجد يصح ان يُتَمَنى عوده وهو نفسه يعمل على تقويضه وازالة معالمه معطياً بذلك اسوأ الامثال لكل من كان دونه ؟

يقول الدكتور طه حسين : « كان ابو سفيان هذا يرجو ان يعود السلطان السياسي الى قريش بعد ان انتقل منهم الى الانصار . »

ونحن نقول ان السلطان السياسي في عهد الاسلام لم يكن لقريش ولا للانصار بل كان للمسلمين كافة بمن فيهم من الاجانب عن العرب ، لان الاسلام محقق الجنسيات وعفوي على آثارها . فلو فرضنا ان ابوسففيان بعد اسلامه كان لا يزال يستوطن الوثنية ، ويكره الاسلام ، ويرى وجود شيء اسمه قريش ، أفما كان يري ان قريش اقداست

على بكرة أبيها وتولت نشر الدين الجديد بتحطيم الاصنام واجبار العرب بالسيف على الاسلام؟ فأى قریش كان يريد ان ينتقل اليها ذلك السلطان السياسي؟ أولئك العامة المستضعفين الذين بقوا في مكة بعد الفتح، ام أولئك الرجال الكبار، والقادة المحنكين امثال ابي بكر وعمر وعثمان وعلى وابي عبيدة وطاححة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وخالد بن الوليد وعمر بن العاص وابني ابي سفيان يزيد ومعاوية اطلع من القرشيين الذين كانوا بالمدينة يديرون ذلك السلطان الاسلامي ويعملون بأنفسهم وأموالهم على تقوية شوكته واعلاء كلمته؟

ان كان ابوسفيان يعنى بقریش أولئك الذين كانوا في مكة فقد كان أولئك مستضعفين، جلهم رعاة واجراء لافى العير ولا فى النفير. واما ان كان يعنى بهم رجالها الاعلى، وصناديدها المعدودين، وقوادها المحنكين، فأولئك انتقلوا كلهم قبل الفتح وبعده الى مكة وتولوا تدبير امر الاسلام والمسلمين تحت اشراف النبي صلى الله عليه وسلم، فكان منهم قادة الجيوش، وامراء السرايا، ورؤساء البعث، والسفراء الى القبائل، والدعاة للدين، والولاة على الاقاليم، قلنا اما ان كان ابوسفيان يعنى بقریش هؤلاء وهم زهرة قریش بل الذين لولاهم لما كانت قریش قریش فان عودهم للكفر امر لا يطوف بخيال انسان يعتد بمقله

يقول الدكتور طه حسين: «لم يكذب النبي يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون والانصار في الخلافة. وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين، وحزم نقر من قریش، ولولا ان القرية المادية كانت اذ ذاك الى قریش، فأذعن الانصار، وانصرفت قوى الجميع الى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين ايام ابي بكر والي ما كان من الفتوح ايام عمر، ولكن المقيمين من أولئك وهؤلاء في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخسومة العنيفة التي كانت بينهم ايام النبي، ولا تلك الدماء التي سفكت في الغزوات وقد حال حزم عمر بين قریش والانصار وبين الفتنة، فقد نهى عن رواية الشعر الذي كان يتهاجي به المسلمون والمشركون ايام النبي وقد كانت قریش والانصار يتذاكرون ما كان قد هجما به بعضهم بعضا ايام

النبي وكانوا حراسا على روايته يحدون في ذلك من اللذة والشهامة ما لا يشعر به الا صاحب العصمية القوية »

ونحن نقول لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع نفر من الانصار وتذاكروا في مصير امر المسلمين وشرعوا في اقامة امير منهم . فسمع بذلك ابو بكر وعمر فأسرعا اليهم في نفر من قريش وتداولوا الكلام في امر خلافة النبي صلى الله عليه وسلم وأدلى كل فريق بحجته ، فافتنم الانصار بصحة رأى المهاجرين وبايعوا ابا بكر بالخلافة مجمعين الا سعد بن عبادة سيد الخزرج فلم يبايع حتي مات فتخلى عنه قومه ولم يرفع واحد منهم بخلافه رأسا

يقول الدكتور طه حسين : « وكاد الامر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين ، وحزم نفر من قريش ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك لقريش »
 فأما قوله كاد الامر يفسد بين الفريقين لولا دين وحزم فصحيح وكفى بقوم فضلا ونبلا ان يخضع فريق لرأى فريق بوازع من الدين والحزم . هذا كل ما ينتظر من فريق كريم وليس بعده مذهب لمستزيد

وأما قوله : « ولولا ان القوة المادية كانت اذ ذاك الى قريش » فغير صحيح فان القوة المادية كانت للانصار جاهلية واسلاما ودليلنا المادى على ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كسر بهم قريشا ومن شايع قريشا من القبائل . وهذا التفوق في القوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان مستساها به عند الكافة حتى نوه به الحباب بن المنذر الانصاري في مؤتمر السقيفة . فقال كما رواه ابن قتيبة في كتاب الامامة والسياسة :
 « يامعشر الانصار املكوا على ايديكم فانما الناس في فيئكم وظلالكم ، ولن يحير مجير على خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رأيكم . انتم اهل العز والثروة واولو العدد والنجدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وتقطعوا اموركم . انتم اهل الايواء ، واليكم كانت الهجرة ، ولكم في السابقين الاولين مثل ما لهم . وانتم اصحاب الدار والايامن من قبلهم . والله ما عبدوا الله علانية الا في بلادكم ، ولا جمعت الصلاة الا في مساجدكم ، ولا دانت العرب للاسلام الا بأسيافكم »

فان قيل ان نص هذه الخطبة يمكن ان يكون مختلفا ، قلنا ونحن نرجح انه مختلف .
ولكن الرواة اعتادوا في اختلاق الاخبار والخطب ان يتحروا من الامور ، مالا
يناقض ما يعرفه الجمهور . فلو لا ان الناس يعرفون بالبداهة ان القوة والمنعة والعدد كان
للانصار دون المهاجرين لما تجارأوا على اختلاق ذلك حذرا من تعريض روايتهم
للكشوك والريب

يقول الدكتور طه حسين : « ولكن المقيمين من المهاجرين والانصار في مكة
والمدينة لم يكونوا يستطيعون ان ينسوا تلك الخسومة العنيفة التي كانت بينهم ايام
النبي ولا تلك الدماء التي سفكت في الغزوات وقد حال حزم عمر بين قريش والانصار
وبين الفتنة اطل اطل

ونحن نقول ان الذين كانوا يقيمون في مكة والمدينة مع النساء والمستضعفين في
ايام تدويح العرب الذين ارتدوا عن الاسلام وانتفضوا على المسلمين ، وفي ايام
الفتوحات العمرية كانوا اما عجزا لا يستطيعون ضربا في الارض ، واما من حثالة
الناس الذين لا ترجي منهم فائدة ، ولا ننتظر منهم نجدة . ومثل هؤلاء لا تخلو منهم
امة ، ولا يكون لهم من عمل في ساعات فراغهم الا ما يناسب مداركهم من ذكر
العصية ، والتلاهي بالمحظورات الدينية . ف هؤلاء هم الذين كانوا ينشدون الاشعار التي
تهاجي بها المهاجرون والانصار ، ويجدون في روايتهم لذة ، بينما كان هؤلاء المهاجرون
والانصار متآخين في الله يجاهدون في سبيله كتفا لكتف ، ويشاطر بعضهم بعضا
السراء والضراء في ميادين الشرف يبذلون صرح دولة قدر لها ان تملك من الاقطار ما لم
يسمع مثله لدولة قبلها لتكون واسطة بين العالم وبين العلم والمدنية التي ستؤول اليها
خلافتها دون سواها من الامم

فأولئك القاعدون في اكسار دورهم يتناشدون الاشعار التي كان يتهاجي بها
المسلمون والكافرون ، كانوا انما ذئبا في ذئب الكريمين المهاجرين والانصار
وكان حظهم من الدين انهم اجبروا عليه اجبارا فلا يزالون يعنون الى جاهليتهم الاولى
ولكنهم كانوا من سقوط القيمة بحيث لم يؤثر ما كانوا فيه من عمل الجاهلية في تلك

الوحدة الوثيقة العرى التي عجزت كل عوامل التحليل عن العدوان عليها حتي ادت ما انتدبت له من اقامة تلك الدولة الفتية التي كان من ثمرة قيامها ذلك الخير العام الذي غمر العالم كافة . فلا يصح ان يقوم الدكتور طه حسين بعد الف وثلاث مئة سنة فيلتقط من هنا وهناك حكايات أولئك العاطلين واكثرها مختلف موضوع ليثبت بها وهن روابط ذلك المجتمع الكريم بعد ان اثبت ذلك المجتمع نفسه بثباته واستمراره ووفائه بما أخذه على نفسه انه كان كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا

وقد حدثت فتن بين الحنابلة والشافعية ، وبين هؤلاء والاحناف في امصار كثيرة حتي في الجامع الازهر ادت الي التقاتل والتناحر ، فهل يصح ان يقال استنادا على فعل بعض المتعصبة الاغرار ان بين اصحاب المذاهب الفقهية الاسلامية حزازات ، او ان هذه المذاهب قد اوجدت بين المسلمين الشقاق ؟

لا ، لا يصح ذلك ، لأن الذي قام بتلك السفاسف حثالة اغمار لا يتخذ اعمالهم حجة على الجماعات التي ينتمون اليها

يقول الدكتور طه حسين : « وقد حال عزم عمر بن قريش والانصار وبين الفتنة فقد نهى عن رواية الشعر الذي كان يتهاجي به المسلمون والمشركون ايام النبي »

ونحن نقول : وقد قتل عمر فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار ؟ ثم قتل عثمان . فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار ؟ ثم قتل على فلم لم تقع الفتنة بين قريش والانصار . هنا يمكن ان يقال لم تقع الفتنة بفضل بقية دين وحزم . نقول هذا كلام ليس من العلم في شيء ، بل هو من الشعر العريق في الخيال . فان الذي شوه في تاريخ الطوائف ان مصالحها متي تصادمت ، او شعرت واحدة منها بأن حقوقها قد هضمت ، عدت من الدين ومن الحزم ان تطالب بحقوقها المهضوم وشرفها المثلوم ، وهبت لا يثنى عليها شيء عن الكفاح . فالثورة التي قام بها الناس وقتلوا فيها عثمان عدها ذووها من الدين والحزم ، واقتتال معاوية وعلى وذهاب حياة الالوف المؤلفة

هدرا فيها عدها الطرفان من الدين والحزم ، والحرب الضروس التي شبت بين شيعة عائشة وطلحة وبين اصحاب علي عدها الخصمان من الدين والحزم ، والتناحر الهائل الذي حصل بين علي والخوارج اعتبرته الطائفتان من الدين والحزم ، فالدين والحزم حجة كل معتمد ومُعْتَدَى عليه . فهل كان دين الانصار وحزمهم من نوع ارقى من دين وحزم كل طائفة في الارض ؟ هب انهما كانا كذلك أفيعقل انهما كانا يمنعانهم ان يقفوا لتأبىد حقهم المهضوم موقف الرجال ، في ميدان الطعن والنزال ، وفي الوقت نفسه يسمحان لهم أن يتسفلوا الى حضيض الرذال ، فيتهاجون بالاشعار ويتطاعنون بما لا يؤثر الا على خيال الاطفال ؟

لا . لا . هذا ليس بمعقول . بل المعقول ان الانصار لم يخضعوا لرأى المهاجرين الا مقتنعين بانهم على صواب ، وانهم لم يجدوا في صدورهم حرجا من قهر الامارة على قريش ، والا لتمحلوا الف عذر لا متلاخ حقهم من ايدي خصومهم المتغلبين ، باسم الحزم والدين ، كما فعلت كل الطوائف في العالمين

سلم الانصار لحجة القرشيين يوم انتخاب الخليفة ، ولكن ما لبث هذا الخليفة اياما حتي ارتدت القبائل التي كانت أسلمت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وطردت جباة الاموال ، واضطر ابو بكر لبث جنوده وقواده في جميع ارجاء بلاد العرب لقمع هذه الفتن . فكان الانصار ، لو كانوا متورون ، يستطيعون في هذا الوقت ان يتذرعوا للثورة على القرشيين بحجة ان حكومتهم بسوء سياستها ردت العرب مشركين

احتضر ابو بكر فاستأذن المسلمين في ان يعهد بالخلافة الى عمر . فقبلوا منه ذلك كارهين ، لشدة كانوا يعرفونها في ابي حفص . فكان هذا الظرف فرصة سانحة لان يثور الانصار بحقوقهم مطالبين ، وانهم لم يفعلوا فلنبثوا موالين ثم قتل عمر فاضطرب لذلك المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا . فكانت هذه نهزة للانصار يهبون فيها للخلاص من نير القرشيين ، وانهم لم يلبثوا كما كانوا مخلصين وادعين

ثم تولى عثمان فساءت الاحوال في زمنه ، واضطربت الامور من تغلب المتعصبة

من قرابته عليه ، وجاءت جنود الاقاليم تحاصره في داره مطالبة اياه بعزل مستشاره وتسليمه اليهم او التنازل عن الخلافة . فلما لم يفعل هذا ولا ذلك اقتحموا عليه قصره وقتلوه . وكان هذا الظرف من الاضطراب مناسبا لثورة الانصار المظلومين
ولكنهم لم يفعلوا ولبثوا مستسلمين .

ثم تولى على وخرج عليه معاوية بالشام ، وطلحة والزبير وعائشة بالعراق ،
والخوارج بمختلف الجهات ، وكانت هذه الاضطرابات من احسن الفرص للثورة
على الغاصبين ، ولكنهم لم يفعلوا فمكثوا هادئين

ثم قتل على واشتدت شوكة معاوية ، واغتصب الخلافة ، ونقل عاصمة الملك الى
دمشق ، وكانت هذه الفرصة اولى من جميع الفرص السابقة بانتصاف المظلومين ،
ولكن الانصار بقوا ساكنين

نعم ثار الانصار والمهاجرون على يزيد بن معاوية ، ولكن كانت يدهم في يد
المهاجرين . وما ثارت الطائفتان الا تدمرا من ان يلي الخلافة رجل ليس من
اهلها الصالحين

أفلا يدل كل هذا على ان الانصار لم يكونوا قط ناقلين على المهاجرين ، والا فان
الدين والحزم اللذين يحدنا عنهما الدكتور طه حسين كانا لدى الانصار من نوع غير النوع
الذي عهدناه عند جميع الطوائف ، وانهم هم انفسهم كانوا من نوع غير النوع الانساني .
فهلا منعهم هذا الامتياز الرفيع من التلذذ بانشاد الشعر الذي فيه سب للقرشيين ؟
ان صح ذلك فما أولاهم بقول قريظ بن انيف العنبري اذ قال ينعي على بني العنبر
تسامحهم في حقوقهم :

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشرف في شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن امساء اهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لطاعته سواهم من جميع الناس انسانا
ولكن مع هذا الفارق وهو ان قوم قريظ بن انيف كانوا يجزون من ظلم اهل الظلم
مغفرة ، ولكن الانصار على ما يقوله الدكتور طه حسين ، كانوا يظهرن الاخلاص
ويبطنون في صدورهم نارا تلظى من الحقد على قريش

كلا . لو كان الانصار يرون انهم قد هضمت حقوقهم ، وغلبوا على امرهم لملا الحقد على قريش قلوبهم ، ولو وجدت لهم في كل مشكلة خلافا ، وفي كل فتنة اصبا ، وفي كل دور من الانتقال استعصاء . واذ لم يحدث منهم شيء مما ذكرنا ، وهي العلامات الدالة على حالات النفوس ، فلا يصح ان يُحمّلوا هم وقريش تبعه ما كان يأتيه بعض الزعائن من كلتا الطائفتين

يقول الدكتور طه حسين : « ان عمر رأى حسانا في المسجد ينشد طائفة من المسلمين فاخذ بأذنه وقال أرغاء كرجاء البعير » الخ الخ

ونحن نقول : ان الدكتور فسر هذه الرواية بأن الانصار كانوا موتورين فكانوا يتعززون بانتصافهم من قريش قبل موت النبي . وعمر تركه عصبيته ان تزدري قريش . وهذا التفسير في نظرنا غير وجيه ولا ينطبق على نفسية الصحابة في ذلك العهد ، تلك النفسية التي يدل عليها تضامهم الوثيق في كل امر . وعندنا ان تفسيره ما سنذكره ، وهو ان الصحابة كانوا يكرهون الشعر ويعدونه من المهملات لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » اي ولا يصح ان نعلمه اياه لحقارته بالنسبة لمنصبه . ولقوله تعالى ايضا : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » . حتي ان لبيد صاحب المعلقة ترك الشعر في الاسلام . وحذا حذوه ناس كثيرون . وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يمتليء صدر احدكم قيحا خيرا له من ان يمتليء شعرا » . ولا شك في ان المذموم هو الشعر المحظور كقصائد الهجاء والمجون . فعمربن الخطاب كجميع الصحابة يكره ان يتأمل الناس بسفاسف الامور . فلما سمع حسانا يرغي كارغاء البعير في المسجد كره منه ذلك لان المساجد جعلت لذكر الله لا لانشاء الشعر . فلما ذكره حسانا بأن النبي كان يسمع منه شعره في هذا المقام تركه لحرمة ومضى ، لا ان عصبيته كانت تكره ان تزدري قريش اذ لو كان الامر كذلك لطرده من المسجد ولم يُبَلَّ به وان كان له في ذلك عذر مقبول

يقول الدكتور طه حسين : « ان عبد الله بن الزعبي وضرار بن الخطاب
 قدما المدينة وانشدا حسنا مما قالت قريش في الانصار فلما فرغا لم يسمعا
 منه ومضيا عائدين الي مكة . فاشتكاهما لعمر فردهما وامره ان ينشدهما ما شاء
 ففعل » الخ الخ

يستشهد الدكتور طه حسين بهذه الحكاية ليثبت ان الانصار كانوا يرتاحون
 لسماع هجو قريش انتقاما منهم
 ونحن نقول ان هذه الحكاية تثبت ان الوحدة الاجتماعية كانت على اتم ما يكون
 في ذلك العهد حتي ان عمر القرشي وهو امير المؤمنين انتصر لحسان الانصاري واحضر
 له القرشيين لينشدهما حسان ما يكرهانه . ويثبت فوق ذلك امر اجديرا بالتنبيه اليه
 وهو ان الانصار وقريشا المسلمة كانوا سواء في ذم قريش الوثنية الموحدة التي بادت
 منذ فتح مكة . ويدل على ذلك دلالة لا تحتمل النقص احضاره القرشيين لسماع حسان
 في ذم قريش الوثنية وترخيصه للناس بكتابة هذا الشعر بعد ان امر بعدم كتابته
 لعدم اثار الضمائن . فالغائوه امره الاول والترخيص بكتابه يدل على انه رأى انه لا يثير
 الضمائن . والا فلو كان يعلم انه يثيرها لما أقدم على الترخيص بكتابه وهو المعروف
 بالورع والمحافظة على وحدة الامة

يقول الدكتور طه حسين : « قال ابن سلام نظرت قريش فاذا حظها من الشعر
 قليل في الجاهلية فاستكثرت منه في الاسلام . وليس من شك عندي في انها استكثرت
 من هذا الشعر الذي يهيج فيه الانصار »

ونحن نقول ان كان هذا صحيحا فيكون الذين ارتكبوا هذا الانتم نعر من الذين
 التحفوا الاسلام ولم يستشعروه فهم نقاضة قريش ونقايتها ممن لا بصيرة لهم
 بدين ولا دنيا ، ولا حظ لهم من الحياة الا ان يشتغلوا بالسفساف والدنايا . اما
 القرشيون الذين وضعوا اساس هذا المجتمع المبارك الذي كُتب له ان يكون نواة
 لا كبر دولة في العالم فلا يعقل ان يكونوا تحمت تاثير حالة نفسية سافلة من هذا
 القبيل والا لظهرت اعراضها الملازمة لها كما هي السنة في كل مجتمع

ثم اننا لا نستطيع ان نتصور ان طائفتين بينهما من التعادى والتنافر ما يحمل احدهما على اختلاق القصائد وما في الاخرى وتحقيرا لساأنها يكون حالهما من التضامن والتكافل على ما رأينا منهن في كل دور من الادوار الحرجة التي دخلت فيها جماعة المسلمين في القرن الاول

فان كان ما يقوله الدكتور طه حسين حقا من ان الانصار قد هضم حقهم ، وانهم أحسوا بهذا الهضم وسكتوا على مضض ، وان القرشيين كانوا ينظمون القصائد طعنا فيهم ، وازراء بهم ، وانهم تحملوا كل ذلك ولم يبدوا حركة تدل على استيائهم ، وجب ان تكون قریش من الظلم والاجحاف ، ونكران الجميل ، وفساد الطوية ، وخساسة النفس في الدرك الاسفل ، وان تكون الانصار في تحملها كل ذلك وجزائها عليه بدوام الوفاء والولاء آية في المروءة والرجولة وشرف النفس

فهب ان هذا كان هو الواقع فذلك لا ينفي انه تفجئة من تفجئات الاسلام ، وأثر من آثار محمد عليه الصلاة والسلام ، ويكون معجزة خالدة له الى يوم القيام . لان فلاسفة الارض مجتمعين يعجزون عن التوفيق بين رجلين من هذا الطراز ، وعلى هذا التنافي في الاخلاق ، فما ظنك بطائفتين كانت احدهما على هذا الصفات الخاطئة من هضم الحقوق ، والاعتداد بالنفس ، والتجزم على الولي ، وقد بنى بهم تلك الوحدة الاجتماعية التي مكنت ذويها من ناصية العالم ، ودفعتهم لاصطناع مدنية لا تزال بدائعها مضرب الامثال الى اليوم ؟

«*»

يقول الدكتور طه حسين : « ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل اباسفيان خطوة اخرى فلم تصبح الخلافة في قریش فحسب بل اصبحت في بني امية خاصة . واشتدت عصبية قریش ، واشتدت عصبية الامويين ، واشتدت العصبية الاخرى بين العرب ، وهدأت حركة الفتح ، واخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض ، وكان من نتائج ذلك ما تعلم من قتل عثمان وافتراق المسلمين ، وانهاء الامر كله الى بني امية »

ونحن نقول هذا كلام قد رتب ترتيبا شعريا خاليا من روح التحقيق العلمي ،

ويعيد عن فلسفة التاريخ واصل الاجتماع بعد لا يقف عند حد

وحقيقة الامر ان عمر لما جرح واحس بقرب وفاته عين ستة من الذين لا تعدوهم
 الخلافة وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام
 وسعد بن ابى وقاص وابى ان يعهد بالخلافة الي ابنه عبد الله حتي اقترح ذلك عليه
 قائلا والله لا يليها من ولد الخطاب اتذن . وخاطب هؤلاء الستة بقوله : يا معشر المهاجرين
 الاولين اني نظرت في امر الناس فلم اجد فيهم شقاقا ولا نفاقا فانه يكن بعدي شقاق
 ونفاق فهو فيكم . تشاوروا ثلاثة ايام فان جاءكم طلحة الي ذلك (وكان غائبا) والا فاعزم
 عليكم بأن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتي تستخلفوا احدا فان اشرتم بها الي طلحة
 فهو لها اهل . وليصل بكم صبيب هذه الثلاثة الايام التي تتشاورون فيها فانه رجل من
 الموالي لا ينازعكم امركم وأحضروا معكم من شيوخ الانصار وليس لهم من امركم شيء ،
 وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فان لهما قرابة . وارجو لكم البركة في
 حضورهما وليس لهما من امركم شيء . ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من
 الامر شيء . فصدعوا باشارته ولكنهم اختلفوا ثم اجمعوا على تحكيم احدهم وهو عبد
 الرحمن بن عوف . فخرج يسأل الخاصة والعامة عن رأيهم فيمن يصلح للخلافة فوجد
 الناس مجمعين علي تولية عثمان فرجع الي اخوانه واخبرهم بأنه اختار عثمان فبايعوه وبايعه
 الناس . واتفق ان كان عثمان ضعيفا فتغلب عليه قريب له يدعي مروان بن الحكم احد
 الذين اصروا على الوثنية حتي فتح رسول الله مكة فأسلم اذ ذاك ضنا بنفسه ، وكان
 مشعبا بروح الجاهلية ، والاثرة القبيلية ، فجعل الولاة في الاقاليم من اغيلة بني امية حتي
 الذين لا يصلحون للولاية . فأحدثت هذه الحالة تدمرا عاما في المسلمين . وظهر من
 عدم كفاية هؤلاء الولاة ماملا القلوب بكرهة تلك الحكومة حتي ان احدهم وهو
 الوليد بن عقبة والى الكوفة صلى بالناس الصبح وهو سكران اربع ركعات ثم التفت
 اليهم وقال ان شئتم ان ازيدكم ركعة زدتم . فما عتمت الفتنة ان اندلع لهيبها وقصد
 المدينة جيش من جنود الولايات وحاصروا عثمان في داره وطلبوا اليه عزل مروان بن
 الحكم وتسليمه اليهم . فأبى . فطلبوا اليه الاستقالة فلم يجبهم الي طلبهم . فهددوه بالقتل
 فلم يقم انهد يدهم وزنا . فاتجمعوا عليه الدار وقتلوه . ثم اجتمعوا فلولوا علي بن ابى

طالب الخلافة فأُسرِعَ بمعالجة ما فسد من أمر الولايات فعزل أولئك الولاة الامويين وولاهم رجالاتهم يثق فيهم مثل محمد بن ابي بكر و ابي موسى الاشعري . وكان ممن أمر بعزله من الولاة معاوية بن ابي سفيان وكان قد مضى عليه في ولاية الشام عشرون سنة اتخذ له فيها جنودا وقوادا . فلما فاجأه خبر العزل احتال لاعلان عصيان به بفرقة أثربها على الذين حوله وهي ان عثمان ما قتل الا باغراء على بن ابي طالب . واتفق ان عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تكره عليا فاتفقت مع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام على ان يؤلبا الناس على امير المؤمنين ليسلمهم رجال الثورة الذين قتلوا عثمان . ولا يخفى ان هذا متعذر . فاعتذر اليهم فلم يقبلوا وجمعوا له سبعين الف مقاتل في العراق فقاتلهم في وقعة اسمها يوم الجمل ، وقتل طلحة وقبض على عائشة ورجعها الي المدينة ثم قصد معاوية فقاتله فلما كاد يأسره احتال عمرو بن العاص كبير قواده فأمر بعض جنوده برفع المصاحف على رؤس الرماح اشارة الى طلب التحكيم الي كتاب الله . فابي عليهم ذلك باعتبار انها حيلة . فاختلف عليه اصحابه واجبروه علي قبول التحكيم . فلما قبله انشقت عنه طائفة لم يرضها ما فعل وتجمعوا عند نهر النهر وان فرحف عليهم فقاتلوه قتالا مرارتي بادوا ثم رجع الي المدينة منتظرا التحكيم . فاجتمع الحكماء ابو موسى الاشعري عن علي وعمرو بن العاص عن معاوية فاتفقا علي ان يعتزل كلا الرجلين امر المسلمين وان يؤخذ رأي الناس فيمن يصلح للخلافة . فلم يقبل علي واصحابه هذا الحكم واعتزم الزحف علي معاوية للفراغ من امره

في ذلك الوقت اتفق ثلاثة رجال علي قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص بحجة انهم سبب هذه الحروب الاهلية التي كادت تقضي علي المسلمين ، وجعلوا لتنفيذ جنائياتهم يوما معيناً . فاما قاتل علي فتمكن منه وهو خارج لصلاة الصبح وكان لا يتخذ حرسا . واما غريم معاوية فاصابه بالسيف في عجزه فلم يصيبه كبير اذى . واما طالب عمرو بن العاص فقتل نائبه علي الصلاة لانه اتفق ان حدث له ما يمنعه في ذلك اليوم عن الجماعة فاناب عنه احد رجاله

لما قتل علي انتخب الناس للخلافة الحسن ابنه . فلما رأى المسلمين اصبحوا

فوضى ، وأن الحرب الاهلية تكاد تقضى على وحدتهم قبل ان يتنازل عن الخلافة لمعاوية بشرط ان يكون هو ولي عهده . فرضي معاوية هذا الحل واستتب له الامر واتخذ دمشق عاصمة للمملكة مكان المدينة . ولبث خليفة عشرين سنة مات في اثائها الحسن بن علي ، فعهد بالخلافة الي ابنه يزيد وكان متهاكفا سقا مد من اللخمر فيه صفات اهل الجاهلية

فلما مات معاوية وتولي ابنه يزيد اعلنت المدينة عصيانها ، وخرج عليه عبد الله بن الزبير بمكة ونودي به خليفة بها ، وتبعته المدينة ومصر والعراق ، وخرج عليه الحسين بن علي بالكوفة ، فقاتله حامل يزيد وقتله وارسل اليه برأسه

ثم ارسل الي المدينة بأحد قواده فأوقع بأهلها شرايقاع وقتل من اصحاب النبي بين قرشي وانصارى سبع مئة ، ومن غيرهم ممن كان معهم نحو عشرة آلاف . ثم قصد مكة ليلاحقها بالمدينة فلم ينجح . واتفق موت يزيد في تلك الاثناء فرجم قائده خائبا فتولي بعد يزيد ابنه خالد وكان زاهدا عابدا ينكر على ابويه ما فعلا فلم يلبث الا اربعين يوما ثم تنازل عن الخلافة . فولاه بنو امية مروان بن الحكم مستشار عثمان والسبب في قتله . فلم تطل مدته . وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان . فأرسل قائده الحجاج ففتح له مكة وقتل عبد الله بن الزبير بعد ان ضربها بالجانيق حتى هدم ركنا من أركان الكعبة . فاستتب الامر لعبد الملك ، وانقطعت الفتن الا بعض الخوارج في بعض الجهات فسحقهم الحجاج

ولما مات عبد الملك خلفه اولاده حتي انتهى الامر الي مروان بن محمد ، فخرج عليه ابو مسلم الخراساني بخراسان داعيا الناس الي مبايعة ابي العباس السفاح من ذرية عبد الله بن عباس ، فقاتله بنو امية فهزمهم في كل مكان ، حتي تم له النصر . فبويع ابو العباس السفاح بالخلافة . وبه بدأت اسرة العباسيين

بعد هذا البيان نرجع لمناقشة الدكتور طه حسين فقد قال : « ولما تولى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل اباسفيان خطوة اخرى » والفكرة السياسية التي يذكرها الدكتور طه حسين وينسبها لابي سفيان هي ان

يعود السلطان لقريش الوثنية بعد ان صار للانصار وقريش المسلمة ، ولمكة بعد ان انتقل الي المدينة . ونحن في هذا المقام نعجب ونساءل كيف وصل الى الدكتور طه حسين ان ابا سفيان كان يبطن هذه الامنية ، ويتربص لها الفرص ، ولم يعلم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حين استصعبه في حربه بالطائف ، وحين ارسله لهدم بعض الاصنام ، وحين ولاه على الصدقات بنجران ، ولا عمر حين ارسله الي حرب اليرموك وقد ابلى في كل ذلك بلاء حسنا حتي قلعت عيناه في المعارك واصبح كفيفا يقوده غلام له الي حيث اراد ؟ وقد ولي عمر ابنه يزيد على الشام ، فلما مات ابلغه خبر وفاته وعزاه . فسا له ابو سفيان عمن ولاه الشام بعده . فقال له عمر ولينا اخاه معاوية (يعني ابنه الثاني) فشكر له ابو سفيان عنايته به وببنيه (ننبه القارىء ان ابا سفيان كان له ابن اسمه يزيد وهو غير حفيده يزيد بن معاوية) .

فهل يعقل ان يعمي جميع معاصري ابي سفيان عن دخيلة امره ، وما يخلج من نوايا السوء في صدره ، فيولوه ويولوا اولاده الخطط الرقيمة ، ويملكهم نواصي الجيوش والولايات ، ونطلع نحن بعد الف وثلاثمائة سنة على ما كان يخفيه في اقصى احشاء قلبه ، وأخفى ثنايا جوانحه ؟ هل حدثت بذلك احدا فأفشاء بعد مماته ؟ هل خان الامانات التي عهدت اليه في حياة النبي أو بعد وفاته ؟ هل حمل جيشا على عصيان ، او اثار قبيلة على شق عصا للطاعة ، او خابرة اجنبية لمساعدته ؟ او عهد الي ابنه بتنفيذ مقاصده ؟ وقد تولى احدهما وهو يزيد بن ابي سفيان الشام ومات في حياة عمر ، ثم تولاهما ابنه الآخر معاوية بن ابي سفيان ولبت بها واليا عشرين سنة وخليفة عشرين اخرى ، فلم يبد من احدهما ما يدل على السعي لتحقيق هذه الامنية التي يلصقها الدكتور طه حسين بأبي سفيان بن حرب

يقول الدكتور طه حسين : « لما تولي عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل ابا سفيان خطوة اخرى »

ومعنى هذا انه كان هنالك تيار سياسي يتوقع اشتداده بتولى بني امية الخلافة . فاذا كان ذلك صحيحا فكيف لا يفتن له بنو هاشم خاصة ، ولا تفتن له كذلك قريش عامة ، فيولوا رجلا من تلك الاسرة الخلافة ، ويمكنوه من قلب دولهم رأسا على عقب ؟

الم يتنازل له الحسن بن علي عن الخلافة بعد مشاورة جمهور المهاجرين والانصار ؟
الم يصبروا على خلافته عشرين سنة لم يحرك فيها احد منهم ساكناً ؟ هل الامة التي ثارت
على عثمان بن عفان الملقب بذى النورين لزواجه من ابنتين لرسول الله صلى الله عليه
وسلم الواحدة بعد موت الاخرى ، وصاحب اليد البيضاء في الانفاق على الجيش
الملقب بجيش العسرة ، والذي اجمع المسلمون بعد موت عمر على انه اولي الناس
بالخلافة ، قلنا هل الامة التي ثارت عليه وقتلته تخضع لمعاوية بن ابي سفيان وليس
له ماض مجيد في الاسلام ، ولا سابقة حسنة تذكر له مع السابقات التي لغيره من
الذين كانوا لا يزالون احياء ، فتركه يدبر عود الجاهلية اليها ولا تفطن لما يعملها وما
ينتويه من هذه الامور الجسام . اننا لاجل ان نصدق مثل هذا الخيال يجب علينا
قبل ذلك ان ندع عقولنا جانبا ونجرب وراء كل خاطر يزينه لنا الوهم باسم تصيد
اسباب اى امر كان

يقول الدكتور طه حسين : « فلم تصبح الخلافة بتولى عثمان في قريش فحسب ،
بل اصبحت في بني امية خاصة ، واشتدت عصبية قريش ، واشتدت عصبية
الامويين ، واشتدت العصبية الاخرى بين العرب وكان من نتائج ذلك قتل عثمان
وانتهاء الامر كله الى بني امية »

ونحن نقول ان مصير الخلافة الى بني امية لم يكن يعتبر شيئاً يذكر في عهد
الصحابة عامة وبني هاشم خاصة . ولو كان يعتبر امراً يستعد به لاحتاطوا له ، ولمنعوا
وقوعه والسلطة في ايديهم

ان هاشمية زيد واموية عمرو وقرشية بكر واعجمية خالد ، كانت في عهد
الصحابة معتبرة من الامور الجاهلية ، وكانت هي واوثنية والتفاخر بالآباء في مستوى
واحد . ألا ترى انه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولي المسلمين ابا بكر وهو
ليس من هاشم في شيء وتركوا ابن عم رسول الله على بن ابي طالب على هاشميتيه
وكفايته ، وقد احتج هو على ذلك وامتنع عن مبايعة ابي بكر وحمل امرأته بنت رسول
الله على ان تطوف على جماعات الصحابة شاكية من هضم حق زوجها فلم يأبه

اشكايتها احد ؟ فلما توفي ابو بكر ولوها عمر بن الخطاب وليس من هاشم في شيء ؟
 ألا تدل هذه الحوادث المتكررة على ان المسلمين في ذلك العصر لم يكونوا يابسون لمثل
 هذه السفساف انقيادا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « اسمع وأطع
 ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة » مادام قد انتخبته الامة ليحكمها باسمها عملا
 بقوله صلى الله عليه وسلم : « مارآه المسلمون حسنا فهو حسن » و « لا تجتمع أمتي
 على ضلالة »

اما قول الدكتور : « واشتدت عصبية قریش » فليس بصحيح لانه لم يحدث
 ان قريشا في عهد عثمان سلبت من عداها حقا كان لهم ، او خصت نفسها بمزية
 دونهم . فعلى اى دليل نستند للحكم عليها باشتداد العصبية ؟ هل ثار عليها
 ثأرون متهميها بهذه النقيصة ؟ هل استقلت بعض الولايات استقثالا لغير هذه
 القبيلة ؟

اما قوله واشتدت عصبية الامويين فهذا صحيح ، وقد ظهرت هذه العصبية بمظهرها
 الطبيعي من توزيع الولايات على الاقارب والاشياع ، ولكن لا تنس ان هذه العصبية
 قد لقيت جزاءها اذ ثار الناس على الخليفة فقتلوه واسندوا الخلافة لسواه . وهذا
 دليل على ان بنية المجتمع الاسلامى في ذلك العهد كانت لا تحمل العصبية .
 فلما حدثت لفظتها لفظ النواة بار تكاب اقصى ما تركه امة لاصلاح مافسد ،
 وهو الثورة

واما قوله واشتدت العصبيات الاخرى بين العرب ، فليس بصحيح لعدم حدوث
 أى مظهر يدل عليه ، ومن أدل مظاهرها انقسام الرابطة العامة بين عناصر الامة
 وزوال الوحدة التي تجمعها ، كأن تستقل الاقاليم البعيدة عن المركز العام ، وتؤلف
 لنفسها حكومات خاصة بها . وكان تقطع القبائل المتباعدة العلاقات التي تعمل بعضها
 ببعض وتربطها جميعا بالحكومة الرئيسية ، فتمتنع عن تادية ما عليها من الاموال قبل
 تلك الحكومة وتطرد عما لها . وكان ينتدب بعضها لمقاتلة بعضها الاخر الخ .
 هذا أدل مظهر على اشتداد العصبيات ، فهل حصل شيء من ذلك ؟ لا ، بل تولى عثمان
 فرأينا القبائل والاقاليم المؤلفة للدولة الاسلامية على ما كانت عليه من الوحدة

الاجتماعية . وعجت مستشاره بتلك الولايات فأُسندها الى اُغيلة لا يحسنون صناعة الحكم ، ولا سياسة الجماعات ، فأثر ذلك في نفوس اهل الاقاليم وحملهم على احداث ثورة ، ولكنه لم يحل رابطتها العامة ، اى لم يولد فيها روح العصبية التى أظهر مظاهرها استقلال كل منها برأسه وعدم تعلقه بغيره ، مع ان قتل عثمان كان يصلح ان يكون فرصة لحدوث تفكك عام فى اجزاء تلك المملكة الناشئة لو كان هنالك ظل من عصبية فضلا عن عصبية شديدة

ثم لما تولى على بن ابي طالب لم تتأثر تلك الوحدة بل زادت وضوحا وتماسكا رغما عن عصيان معاوية ، وخروج عائشة وطلحة والزبير والخوارج على الخليفة الجديد

نعم زادت تلك الوحدة وضوحا وتماسكا دلت عليهما تلك الفتن الأهلية نفسها . فان الجنود والقواد الذين اشتركوا فى هذه الفتن لم يكونوا جماعات متجانسة جمعتهم العصبية القبلية ، ولكن فئات جمعتها المذاهب السياسية . فالجنود والقواد الذين انتصروا لمعاوية لم يكن فيهم بنو امية الا كقطرة فى بحر لأن بنى امية اجمعين ابناء اسرة واحدة قد لا يبلغون المئتين عدا ، ولكن الجيوش الجاراة التى تحزبت لمعاوية كانوا من قبائل شتى جمعها المذهب السياسى لا العصبية القبلية

وكذلك تحزب لعلى بن ابي طالب الانصار جميعهم وهم بنو الاوس والخزرج من القبائل اليمنية ، وعشرات الالوف من الجنود من قبائل شتى كان القرشيون فيهم لا يبلغون جزءا من مئة

وكذلك الجيش الذى لى دعوة عائشة وطلحة والزبير . كان اكثره من العراق قاموا يطالبون بقتلى عثمان الاموى (تأمل) وليس فيهم واحد من الامويين . بل ولم تكن عائشة ولا طلحة ولا الزبير يمتنون لعثمان بأقل قرابة

وكذلك الخوارج الذين خرجوا على على بن ابي طالب وقتلوه عند النهروان كانوا خليطا من قبائل متفرقة

فهل تريد دليلا اقوى من هذا على ان روح العصبية القبلية كانت مُحجّقة بتأثير الاسلام وحامت محلها وحدة جامعة لا تتأثر الا من وجهة الآراء والمذاهب السياسية

كما تنافسها كل امة في الارض الى اليوم

فان كان الدكتور طه حسين يستنتج اشتداد العصبية من صدور قصائد من شعراء في الافتخار بقباثلهم، او من اغراء زعيم فاجر لبعض الشعراء على ذم بعض العناصر المكونة للمجموع الاسلامي، فان هذا لا يصح ان يعبر عنه في علم الاجتماع باشتداد العصبية، لانها امور شخصية لا يتعدى تأثيرها الافراد، ومثلها يوجد في كل امة وفي كل جيل من الناس، وانما يُعنى علم الاجتماع بما يؤثر على المجموع فيعمل على تفكيكه او يحدث أعراضا خاصة مستقلة عن أعراض العلل العامة. فالتألب على قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، يُنظر فيه، فان كان الباعث عليه انه اموي كان ذلك من آثار العصبية. وان كان الحامل عليه امور عامة تهم المجموع، فلا يكون من آثار العصبية، بل من آثار الغيرة على الحقوق والكرامة العامة. فلننظر فيه نظرة اجتماعية، لتحديد عوامله الحقيقية:

يقول الدكتور طه حسين: « كان من نتائج اشتداد العصبية قتل عثمان وانتهاء الامر كله الي بني امية »

ونحن نقول ان الناظر لهذا الاجمال يخيل اليه ان امر المسلمين في عهد عثمان اصبح كله تابعا لعوامل العصبية الجاهلية التي تكون بين الامم المنحلة او التي على وشك ان تزيلها روح الوحدة الاجتماعية، وان قتل عثمان كان بسبب انه من بني امية لا بسبب آخر من الاسباب التي تدفع الامم الحية الي الثورة. فلازالة ما عسي ان يعلق بالاذهان من هذا الخطأ التاريخي الخطير، وما يندس في الصدور من تحقير ذلك المجتمع الناشئ، رأينا ان نكشف العوامل الحقيقية لهذه الثورة ونبين نتائجها على الاسلوب العلمي انصافا لتلك الدولة التي اُعدت لاحداث اكبر الانقلابات الاجتماعية والعلمية والمدنية في الارض فنقول:

تولى عثمان الخلافة بانتخاب المؤتمر الذي دعا اليه عمر وهو يجود بنفسه. ولم ينظر في تعيينه انه من بني امية او من بني هاشم او من غيرهما بل نظر الي كفايته. يدل على ذلك ان الذين انتخبوه لم يكونوا امويين وقد بايعه الناس كافة مرتاحين الي ولايته، مستبشرين بامامته، باعتبار انه من اصحاب السابقات الحسنة، والماضى

الحافل بجلال الاعمال . فاتفق انه كان من ضعف الارادة بحيث تغلب عليه قريب له يدعي مروان بن الحكم وهو واحد من الذين عضوا على الوثنية بالنواجذ حتى فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ومن على مشركيها بالعفو العام فدخلوا في الاسلام حقنا لدمائهم ، وربهم اعلم بنياتهم

استولى مروان على ارادة عثمان فحدث احداثا رآها الناس من احكام الجاهلية فنقموا على الخليفة وكرهوا حكومته . ونحن نؤاتيك بالوجوه التي نقم الناس عليه من اجلها منقولة من كتاب الامامة والسياسة لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة (١٧٠) للهجرة صفحة ٣٦ من الطبعة الثانية قال :

« اجتمع ناس من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكتبوا كتابا (يريد ان يقول نشرنا بياننا عن الحالة) ذكروا فيه ماخالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه وما كان من هبته خمس افر يقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربي واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله في البنيان حتي عدوا سبعم دور بناها بالمدينة ، دارا لنائلة ودارا لعائشة وغيرهما من اهله وبناته ، وبنيسان صرران القصور بذي خشب ، وعمارة الاموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله ، وما كان من افشائه العمل والولايات في اهله وبنى عمه من بنى امية احداث وغلبة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالامور . وما كان من الوايد بن عقبة بالكوفة اذ صلى بهم الصبح وهو امير عليها سكران اربع ركعات ثم قال لهم ان شئتم ان ازيدكم ركعة زدتم . وتعطيله اقامة الحد عليه وتأخير ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والانصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى عن رأيه برأيهم وما كان من الحمي الذي حمي حول المدينة . وما كان من ادراره القطائع والارزاق والاعطيات على اقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه السلام ثم لا يغزون ولا يذبون . وما كان من مجاورته الخيزران (في اقامة الحدود) الى السوط وانه اول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وانما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران » انتهى

هذا ما قومه الناس على عثمان ، وهو ما لم يعهدوه منذ تولى امرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خليفته من بعده ، فكان الصبر عليه فوق ما صبروا من اول عهد عثمان

مما لا سبيل اليه . فانتشر التذمر في الولايات ، وعم القلق والاضطراب جميع البلاد وانتدب قوم من مصر والكوفة للشيوخ الى المدينة لوضع حد بالقوة لهذه الحالة السيئة . فاقبل الف رجل من الكوفة واربع مئة من مصر وحمروا عثمان في داره فدخل الدار معه مئة رجل من قبائل شتي منهم عبد الله بن الزبير والحسن بن علي وعبد الله بن سلام وابو هريرة والمغيرة بن شعبة وغيرهم . وكان ينصره خارج الدار رجال آخرون . وكان لا يود رجل يعتد به في المدينة ان يصبه اذى وان كان الجيعة يودون ان يعتزل أو يستقيم . فحدث منه ما غير جميع القلوب عليه ، وذلك انه كان ولي على مصر رجلا من الذين كان استباح النبي صلى الله عليه وسلم دمه اسوء اثره في مناهضة الاسلام والمسلمين ، فاختفى ثم ظهر بعد وفاته ، وهو عبد الله بن ابي سرح ، فسلك في مصر سيرة الجبارين العاتين فاقفد اهلها رجلا منهم الى عثمان يشكونه اليه ويرجون ان يبدل به سواه . فلبى طلبهم وولي مكانه محمد بن ابي بكر فخرج في جماعة من المهاجرين والانصار ، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة صادفوا غلاما اسود يُفند السير على بعير فاستوقفوه وسألوه عن نفسه فاضطرب في الجواب ، وكان يقول تارة انه غلام عثمان ، وطورا انه غلام مروان بن الحكم . ولما فتشوه وجدوا معه كتابا بنحتم عثمان الي عبد الله بن ابي سرح فقرأوه فاذا فيه : « اذا اتاك محمد بن ابي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتبهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي » ففزعوا مما قرأوا ورجعوا الى المدينة وعرضوا على كبارها الكتاب ، فلم يبق احد الا حنق على عثمان وتركوا الثائرين يفعلون ما بدا لهم . فشددوا عليه الحصار ومنعوه الماء وطلبوا اليه ان يسلم اليهم مروان بن الحكم الذي اتهموه بانه كاتب هذا الكتاب . فلم يقبل عثمان ان يسلمه وبيناهم على تلك الحال اذ بلغهم ان معاوية بن ابي سفيان قد ارسل اليه مددا اربعة آلاف رجل فحملهم ذلك على الاسراع في الانتهاء منه ، فاحرقوا الباب واقتحموا عليه الدار وقتلوه . فانهال الناس علي علي بن ابي طالب من كل مكان يعرضون عليه الخلافة فابي فما زالوا به حتي قبلها . فكان ما كان مما ذكرناه في الفذلكة التاريخية السابقة

فماذا يري القارىء في هذه الحادثة الاجتماعية غير ثورة قومية علي حكومة غاشمة

استبدادية ؟ اين اثر العصبية من عوامل هذه الثورة ، وقد قام بها رجال من قبائل شتى لا تجمعهم غير الوحدة السياسية ، والمصاحبة الاجتماعية ؟

ان من الامور التي نقمها المسلمون على عمان عصبية الاموية ، وعدم مساواته بين الناس في الحقوق المدنية ، فكيف يقال ان الذي بعث اليها هي العصبية ، وان الذي سبب قتل عمان هي العصبية ؟ اللهم الا ان قيل انها هي العصبية التي ظهر بها بنو امية ، ونفرت منها تلك الهيئة الاجتماعية

اننا في هذا المقام لا نتالك انفسنا من الدهش العظيم من استعصاء تلك الوحدة التي اوجدها الاسلام للعرب على المحلات ، حتي انها قاومت جميع عوامل التحليل وتغلبت عليها ، وقد كان العرب يضرب بهم المثل في الفرقة والعصبية ؟ نعم نرى ما يوجب الدهش والحيرة . نرى قبائل كانت بالامس في حالة تفكك لا يرجي له التثام لكل منها تاريخ خاص ، وما اثر قائمة على النكاية بمن حولها من بني جنسها ، ومفاخر مؤسسة على سفك دماها ، واجتياح ممراتها ، وقد مر عليها في هذا الدور من التدابر مئات بل الوف من السنين ، تظهر في عهد الاسلام كتلة مندمجة تستعصى على جميع عوامل التحليل ، فلا يؤثر فيها ما يؤثر بعضه في الامم ، ثم تخرج من جميع هذه الادوار كتلة مندمجة كما كانت فتحدث في العالم ذلك الحدث الضخم الذي قلب الارض ومن عليها من حال الي حال اخرى . لعمري ان هذا لا أعجب مارأيناه في تطورات الامم . فلا يصح ان ترمى العناصر المؤلفة لهذه الامة بالعصبية ، بل يجب ان ينوه بالتضحيات العظيمة التي بذلتها لامة العصبية ، مما لم يعهد له مثيل في تاريخ الهيئات الاجتماعية ، على هذا النحو من الانتقالات الفجائية

ولقد اثبتت هذه الثورة التي انتهت بقتل الخليفة الثالث على ان الاصول التي كانت تقوم عليها الجماعة الاسلامية الاولى خير الاصول الاجتماعية ، كما يدل على ذلك نص البيان الذي وجه الى الامة ونقلناه في الصحف المتقدمة

لقد كان يسر على العرب واشبه بما كانوا عليه منذ قليل ان ينهزوا هذه الفرصة النادرة من اختلال الحكومة الرئيسية فتستقل كل ولاية بنفسها ، وكل قبيلة برأسها

وتخلص من ولادة السوء ، وعمال الفساد ، ولكن الوحدة التي صلبها الاسلام في قلبها كانت من الاندماج والتماثل بحيث آثرت هذه الولايات والقبائل ان تخاطر بنفسها واموالها لاصلاح الحكومة المركزية على ان تحدث حدثا يكون من ورائه تفكك روابطها الاجتماعية ، كأنها امة عريقة في الوحدة القومية ، اصيلة في النزعة الوطنية

يقول الدكتور طه حسين : « وعاد العرب الى شرما كانوا فيه من التنافس في جميع الامصار الاسلامية ، ويكفي ان اقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الانصار وغيرهم عند معاوية ويزيد بنه »

ونحن نقول : ان عبارة وعاد العرب الى شرما كانوا فيه من التنافس في جميع الامصار الاسلامية فيها قسط كبير من المبالغة الشعرية . لاننا نعلم وكل الناس يعلمون ان العرب قبل البعثة المحمدية كانوا على أشد ما يكونون من التفرق والتفكك . كل بلادهم العامرة الخصبية كانت واقعة تحت النير الاجنبي ، وكانت قبائلهم في وسط بلادهم على حالة من التناحر لا تبقى ولا تذر . فلا يعقل انهم يكونون بعد مقتل عثمان قد عادوا الى مثل هذا او شر منه . وما احدا بالدكتور طه حسين الى مثل هذه المبالغة الا قنصر نظره على اخبار الشعراء ، واتخاذ ما حدث بين بعضهم والبعض الاخر اساسا للحكم على هيئة اجتماعية ناشئة في حالة تطور تعمل فيها عوامل من انواع شتى لاستجاشة ما كمن من خصائصها المعنوية والمادية . ولكن اخبار الشعراء واهل البطالة ممن يستمعون لهم او يشترون ضمائرهم ، مما يحشوه مؤلفو كتب المحاضرات كالاغاني والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ويحيطونه بجو من التهويل والبهتان لا يصح ان يعتبر ميزانا تقدر به الامور الاجتماعية

انا لا انكر انه كان تنافس بين العناصر المؤلفة للمجموع الاسلامي في ذلك العهد ، ولكني ارى ان هذا التنافس في ذلك الجيل من الناس كان مظهرا من مظاهر الحياة والحركة النفسية اللتين لا تتجرد منه امة في حالة نمو وتطور . فهاذا انت قائل لو قرأت جرائد الاحزاب المتعارضة لامة من الامم المتمدينة المعاصرة لناء وكل منها ترفع

الحزب الذي تنتمي اليه الى ارفع مما يبالغه التصور وتحط من قيمة الاحزاب الاخرى حطاً لا تراعى فيه الا ولا ذمة . هل تسوِّغ لك هذه النظرة السطحية ان تقول ان هذه الامم قد مزقتها العصبيات ، وفرقتها المنافسات وانها لا تلبث ان تنحل انحلالاً لا دواء له ؟ لا . لأن الوحدة الاجتماعية متى استحسنت تنقلب الى ما يشبه الاندماج المادى فلا تنفكك من تلقاء نفسها بأى عامل من العوامل الذاتية ، ولا بد لتفكيكها من عوامل خارجية تقهرها على قبول هذه الحالة . ولكنها تعود الى الوحدة متى زال عنها ذلك العامل الخارجي

نعم قد يحدث ان تستقل بعض اجزاء الامة عن بعضها الآخر بسبب فتنة داخلية ولكن تلك الاجزاء تميل دائماً للالتئام ، ويظهر ذلك الميل بميل بعضها الى ادخال البعض الآخر فى حظيره بالقوة ، ولا تزال تلك الاجزاء بين جذب ودفع حتى يتم الامر برجوع وحدتها اليها

مثال ذلك الامة الاسلامية نفسها فى اول تكونها فانها بعد ان انصب مجموعها فى قالب الوحدة الاجتماعية بتشابك مصالحها المادية والمعنوية حدثت فيها احداث كان يكفى بعضها لان يرجعها الى تفكيكها الاول ؟ وتلك الاحداث كاستئثار القرشيين بالحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم على منافاة الاسلام نفسه لهذا الاستئثار ، فلم يسع الانصار الا تضحية منفعتهم فى سبيل الوحدة فخفضوا لرأى مناظرهم ، وفى مستقر عزهم وصولتهم . ثم حدثت فتنة ارتداد القبائل العربية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفعت طبيعة الوحدة الاجتماعية الطائفة التي هي نواتها الاصلية الى اخضاع ما شذ عنها بالقوة فتم لها الغلب

ولما قتل عمرو بن لوى الخلافة عثمان وكرهت الناس حكمته واضطربت احوال الاقاليم ، كانت هذه الفوضى تكفى لتفكيك عرى تلك الوحدة الناشئة ان كانت مصطنعة . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، بل حدثت ثورة ردت الامر الى نصابه

ولما انتخب على بن أبى طالب للخلافة وخرج عليه معاوية وعائشة وطلحة والزبير والخوارج لم يدعهم وشأنهم ، بل انتدب لاعادة الوحدة الى حالتها ، فتقلب على

جميع الخارجين عليه الا معاوية ولو عُمِّر قليلا لتغلب عليه او لخضع له في سبيل الوحدة العامة

فلما تولى الحسن بن علي كانت الفرصة سانحة لتفكك تلك الوحدة ولكنها لم تحدث بل ضحى ذلك الامير بمصالحته الشخصية، وتنازل عن الملك لمعاوية صيانة لتلك الوحدة.

ولما مات معاوية وتولى الامر ابنه يزيد، وكان مشتهكا ساقطا، فشرع المجموع بأن النضحية في الخضوع لهذا الطاغية تفضى الى أسوأ النتائج فتفككت الوحدة الاجتماعية فخرجت المدينة ومكة ومصر والعراق. وتعدد الدعاة الى انفسهم ولكن طبيعة الوحدة اضطرت هذا المترف للعمل على اخضاع الخارجين فانهم اخضعوا المدينة ومات وهو يجد في اخضاع مكة

ولما خلفه ابنه خالد ومروان بن الحكم لم يتمكنوا من ارجاع الوحدة الى ما كانت عليه لتنازل الاول بعد ايام ولموت الثاني بعد قليل من ولايته. فلما خلفه ابنه عبد الملك سعى لهذا الامر سعيه فرجعت الوحدة لتماسكها الاول واستقرت على تلك الحالة

هذه طبيعة كل وحدة اجتماعية تقوم على اساس ثابت، وايمان صحيح بقيت مسألة المنافسات الشعرية التي يصادفها القارى في كتب المحاضرات محاطة بلقاء من التلقيات والتهويلات، وهي ليست بشئ سوى اعراض ملازمة لكل مجتمع انساني قريب عهد بالحياة القبلية

على ان النظرة السطحية في تلك الحكايات تريك انها ملفقة تلقيها خاليا من كل مهارة وذوق

مثال ذلك ما نقله الدكتور طه حسين ان عبد الرحمن بن حسان شبيب برمالة بنت معاوية نكاهه فيه وتبعه لذلك نكاه في ابنه يزيد اخيه الذي يقول عنه الدكتور طه حسين انه كجده ابي سفيان في انه كان مطبوعا علي القوة والجاهلية والفتك. قال الدكتور فاصطنع معاوية الحلم وقال له اين انت من أختها هند ؟

لعمري انه يجب ان يكون لدى القاريء قسط غير قليل من البله ليستطيع ان يصدق ان معاوية بن ابي سفيان زعيم قریش وامير المؤمنين يقابل شاعرا فاسقا ساقط المنزلة ينتهك حرمة بأشنع ما يأتف منه الرجل الساذج. بله الشريف العظيم يمثل هذا الدم البارد، ويغريه بالتغزل باختها اى بابنته الثانية. فأين كان يزيد الذي يوصف بالقوة والفتك ليدافع عن كرامة اخته، ويحمي عرضها من لسان رجل لا في العير ولا في النفير؟

ولا ننسى هنا ان نقول في هذه المناسبة ان الدكتور يصف يزيد بأنه كان صورة لجدّه ابي سفيان في العصبية والفتك والسخط على الاسلام. ولكن المعروف بالاجماع ان ابا سفيان أسلم وهدم بعض الاصنام وأبلى في المعارك لنصر الاسلام بلاء حسنا حتى فقد كلتا عينيه، وانه وُلّي لامانته وصدق عزيمة على صدقات نجران باليمن فأدى كل ما عهد اليه بجد وباستقامة حتى توفاه الله. فمن اين استنتج الدكتور طه حسين انه كان رجل عصبية وقوة وفتك وانه كان يكره الاسلام وما سببه للناس من سنن؟ لعمري لو صح ان نفسه كانت على ما يصفها به الدكتور طه حسين مع سلوكه هذه السيرة حيال النبي صلى الله عليه وسلم، وحيال الاسلام، وحيال الوثنية، وحيال انصار الجاهلية، لوجب ان نصم ابا سفيان هذا بأنه كان اجبن الجبناء، واضعف المنافقين، واخس من مشى على الثبراء

يقول الدكتور طه حسين: «ولقد يستطيع الكاتب السياسي ان يضع كتابا ضخما في هذه العصبية بين قریش والانصار وما كان لها من التأثير في حياة المسلمين ايام بني امية، لا نقول في المدينة ومكة ودمشق بل نقول في مصر وافر يقبا والاندلس ويستطيع الكاتب في تاريخ الادب ان يضع سفرا مستقلا فيما كان لهذه العصبية بين قریش والانصار من التأثير في شعر الفرقين الذي قالوه في الاسلام، وفي الشعر الذي انتحلّه الفرقان على شعرائهما في الجاهلية وقد تجاوزت العصبية هؤلاء الى العرب كافة فتعصبت العدنانية على الجمانية، وتعصبت مضر على بقية عدنان، وتعصبت ربيعة على مضر، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية

والقرشية ، وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر . وقل مثل ذلك في اليمن فقد كانت للازد عصبيتها ولحمير عصبيتها ولقضاة عصبيتها . وانت تعلم حق العلم ان هذه العصبيات هي التي ازلت سلطان بني امية لانهم عدلوا عن سيااسة النبي التي تريد محو العصبيات ، وارادوا ان يعتزوا بفريق من العرب على فريق . قوا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها فادلت منهم بل ادلت من العرب للفرس »

ونحن نقول ان مؤدى هذا الكلام ان العصبية الجاهلية التي امانها الاسلام عادت ففشيت في العرب بين قبائلهم الكبرى وطمت حتى فرقت بين بطون وانحاذ تلك القبائل فاصبح الكافة على شر مما كانوا عليه من الانقسام والتدابر . ولكن الكاتب السياسي الذي يذكره الدكتور طه حسين لا يستطيع ان يقيم لهذا الكلام وزنا لانه يرى النتائج المحسوسة لاتتفق وهذه المقدمات المفروضة . وهو ليس لديه من ميزان لتقدير قيمة العوامل الاجتماعية التي عملت في امة من الامم السابقة ، ولا من محك لتمييز صالحها من فاسدها غير ممرات الجهود التي بذلتها تلك الامة . فهي الشاهد الذي لا يكذب المؤرخ المحقق ، وهي الواقع الذي لا معدل عنه الى غيره في الحكم على جيل من الناس تختلف الاقوال في امره

فماذا يرى السياسي من الامور الواقعية في عهد الدولة الاموية منذ استقام الامر لعبد الملك بن مروان الي انقضاء دولة بني امية سنة (١٣٢ هـ) ؟
يري امرين لاسبيل الى انكارهما : (اولهما) استمرار الوحدة الاجتماعية في الامة العربية . و (ثانيهما) اتساع المملكة الاسلامية في عهدها الى حد لم تدركه دولة قبلها

ولكن كتب المحاضرات كالاغاني والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها تذكر لنا حكايات عن الشعراء والادباء قد اختلفوا اكثرها الخلقون ، وموه ماصح منها الموهون ، فيقرأها القارىء اليوم فيخيل اليه ان العصبية الجاهلية ، واختلاف الاهواء القبلية كانت قد بلغت من الامة الاسلامية في العصر الاموي الي حد ليس بعده غاية ، ثم يلتقي بنظره على التاريخ فيجد ان الامة الاسلامية في ذلك العهد نفسه

قد بلغت من الملك الى مدى لم تستطع الدول التي جاءت بعدها ان تزيد عليه شيئا واحدا . فاذا كانت العصبيات قد وصلت الى الحد الذي تخيله لنا حكايات الشعراء في العصر الاموي فكيف تبقى معها وحدة اجتماعية ؟ واذا كانت الوحدة الاجتماعية قد تفككت عراها باشتداد تلك العصبيات فكيف نمت قوى الامة وفاضت حتى امتدت الى خارج بلادها وبسطت سلطانها على امم قوية لم تحمل نير امة قبلها قط ؟

هنا يجب علينا ان ننبه الذين يقرأون الكتب الادبية المؤلفة في العهد العباسي وهو ما بين القرن الثاني الى السابع الهجري الى امر جدير بالنظر . وهو ان العباسيين كانوا يكرهون الامويين ويحقدون عليهم الى حد انهم نديشوا قبور خلفائهم واخرجوا هياكلها العظمية وصلبوها على قارعات الطرق ثم احرقوها وذروها في الهواء . وكان الذي يذكر للامويين حسنة يتهم بانه مشايخ لهم فيذيقونه ألوان العذاب . وكثيرا ما كان مؤلفو المحاضرات يخلقون الاكاذيب على الامويين ليتقربوا بها الى اصحاب الدولة في العهد العباسي . فكل ما يروى من المذام في الدولة الاموية في كتب المحاضرات يجب ان يؤخذ بتحفظ . واذا كان هذا فيما يتصل باخبار الخلفاء والوزراء وامور الدولة التي يمكن الاستدلال على حقيقتها من التاريخ ، فما ظنك بما لا شاهد عليه من التاريخ كاثبات الشعراء ، ونوادر الادباء ، وحوادث القبائل البعيدة عن كتاب تلك المحاضرات . أفلا يحسن بنا ان نطبق اسلوب ديكارت على هذه الاقاصيص فلا نغلو في اعتبارها مصادر جديرة بالثقة المطلقة في حين ان الواقع يكذبها وحوادث التاريخ تشهد ببطلانها .

يقول الدكتور طه حسين : « فأدلت هذه العصبيات من بني امية ، بل أدالت من العرب للفرس »

يريد الدكتور طه حسين بقوله بل أدالت من العرب للفرس ان الفرس صارت لهم الدولة على العرب بتغلب رجال منهم على الخلفاء كبنى بُوَيْنَه الذين تغلبوا على الخلفاء العباسيين وكثيرهم من الذين توزعوا الممالك الاسلامية وحكروها باسم الخلافة ظاهرا ،

اما باطنا فكانوا اصحاب الحل والعقد في جميع الممالك الاسلامية
وهذا الكلام خطأ من الوجهة الاسلامية الدينية ، ومن الوجهة الاجتماعية ، قاما
من الوجهة الاسلامية الدينية فان الاسلام جاء معلنا وحدة النوع البشري كله ، فلم
يعتد بالفوارق الجنسية ، ولا بالمميزات الاجتماعية لقوله تعالى : « يا ايها الناس انا
خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان
الله عليم خبير » وقد اعطي النبي صلى الله عليه وسلم مثالا من هذه الوحدة العامة فولي
المدينة رجالا ذوي جنسيات مختلفة بين رومية وفارسية وحبشية كصهيب وميسان
وبلال . وولي على اليمن الهرمزان وهو فارسي الاصل

والفرس الذين حكموا العرب كانوا مسلمين مثلهم وقد حذقوا العربية حتى صاروا
اعلم بها من ابنائها ، واتقنوا العلوم الدينية حتى صاروا ائمتها وحفظتها
فالمسلمون في هذا الموطن لا يقولون ان الفرس حكموا العرب لانه لا جنسية في
الاسلام وانما يقولون انه قد حكمهم اصلحهم للحكم غير ناظرين الى شيء من الفوارق
الوهمية التي اوجدتها العصبية الجاهلية

اما خطأ الدكتور طه حسين من الوجهة الاجتماعية فلا يحتاج لكبير تأمل فان
العلم لا يعنيه في تقدير العناصر المؤلفة للجماعات الاجناس والالوان ، وانما يعنيه الروح
المحرك للمجتمع ، والاصل الذي يقوم عليه بناؤه ، والغاية التي تتجه اليها الميول العامة .
فتذا نظرنا من هذه الوجهة الى العرب والفرس بعد دخولهم في الاسلام نجد الاخيرين
قد فنوا في الاولين فناء لم تعد معه جنسيتهم بمغنية عنهم شيئا . فقد تسموا باسماء عربية ،
واتقنوا لغة القرآن حتى اصبحوا اكبر حفظتها ، وتبحروا في العلوم الاسلامية حتى
صاروا اعظم ائمتها ، وانقلبوا اغير على القرآن والعربية والاسلام منهم على اعز شي
لديهم . فلا يقال لمثل هؤلاء ان سبقوا العرب الى عروش الملكيات ، ودسوت
الوزارات انه قد صارت لهم الدولة على العرب ، بل يقال انهم قد فنوا فيهم واضاعوا
شخصيتهم الفارسية ، واضحوا اعضاء في مجتمع انساني محض ليس فيه اعتبار
للجنسيات واللغات والالوان . وتغلبهم على العرب في الحكم لم يتم لهم بفضل جنسيتهم ،
ولا لغتهم ، ولا روحهم الفارسية ولكن بفضل مبدأ اللاجنسية الذي قرره الاسلام ،

وبفضل لغة القرآن وروح الوحدة العامة التي أتى بها محمد عليه السلام . فلا يصح بعد هذا ان يقال مثل ما يقول الدكتور طه حسين (بل قد اديل من العرب للفرس) وانما يقال تسابق الاخـوان لتولي الحكم وزعامة العلم فسبق احدهما الاخر لمراة عليهما وتبرزه فيهما على جميع العناصر المكونة للمجتمع الاسلامي . ولم تحسن بنية العالم الاسلامي باى اضطراب من جراء تغلب بعض العناصر على بعضها الاخر في تولى الحكم وفي قيادة الارواح والعقول بالتبريز في علوم الدين واللغة ، لعدم وجود المقتضي لذلك في مجتمع تقرر فيه مبدأ اللاجنسية

* * *

يقول الدكتور طه حسين : « واذا كان هذا تأثير العصبية في الحياة السياسية فانت تستطيع ان تصور هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف تحمص كل واحدة منها على ان يكون قديمها في الجاهلية خير قديم . وقد ضاع الشعر الجاهلي بموت رواته في الحروب ، وهذه القبائل في حاجة الى الشعر تقدمه وقودا لهذه العصبية المضطربة ، فاستكثر من هذا الشعر ونخلته شعراءها القدماء »

ونحن نقول ان العصبية لم يكن لها تاثير في الحياة السياسية لدى العرب الاولين كما اثبتنا ذلك بتوسع في كلامنا السابق . فكل الذي امامنا هو أن احد الولاة وهو معاوية خرج على الخليفة القائم بالامر محفوزا بمطامع طافت برأسه انتحل لها سببا مزورا ، فلم يطل عمر ذلك الخليفة حتى يحمد ثورة معاوية فاتفق كبار الصحابة على تولية ابنه الخلافة . فرأى هذا ان حقق دماء المسلمين اولى من التمسك بحقه في الخلافة فتنازل عنها لخصمه وخضم اييه ، وقبل هذا التنازل جميع المسلمين . فلو كان للعصبية سلطان فيما نحن بصددده لتجددت العداوة بين معاوية والحسن

فلما تولى يزيد بن معاوية لم يطق العالم الاسلامي ان يحمل نير هذا اطاغية لنفسقه وفجوره ، وكان الحسن قد مات ، فخرج عليه الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، لا لأنه من بني امية ولكن لعدم صلاحيته للخلافة . فلما مات يزيد خلفه ابنه خالد ثم قريه مروان بن الحكم ، فلم يطل عهدهما ، ولما تولى عبد الملك بن مروان تمكن بواسطة قائده الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولم يكن من بني امية ، من اخضاع المنشقين واستقام له الامر وورثه ابناؤه وابناء أبنائه فانست مملكة المسلمين في عهدهم حتى صارت

أكبر من مملكة الاسكندر المقدوني ، فأى تأثير للعصبية الموبقة في هذه الحياة السياسية المركزة ؟

فان كانت القبائل في ذلك الوقت تنتحل الشعر فلم يك ذلك لاسباب سياسية ولكن لاسباب اخرى معقولة ، وهي الاشادة بذكر آباءها لاثبات اصلها في العلم والادب وعراقتها في الفضيلة والحسب . وهذه العوامل تكفي لتعليل كل الاكاذيب والتلفيقات التي عثر عليها الدكتور طه حسين وغيره في كتب المحاضرات . اما تطرف شعراء بعضها لذكر مثالب بعضها الاخر فله سبب ليس منه العصبية ولا السياسة في شيء . وهو أن الذي اجترأ على ذلك هم الشعراء ، والشعراء في الاجيال السالفة كانوا من طائفة المتسولين ، حتي ان اشراف القبائل كانوا يأتون من قول الشعر ترفعا من ان ينسبوا لتلك الفئة التي كانت تعتبر ساقطة في نظرهم . فقد روي ان حجنرا ابا امرئ القيس انف ان يقول ابنه الشعر وامتنابه مرارا ، فلما اعياه امره امر بقتله ، فرحمه الموكل به واطلقه . يجوز ان تكون حكاية امرئ القيس هذه ملفقة ، ولكن الثابت المقرر ان اشراف الناس كانوا يأتون من قول الشعر . وقد عده الصدر الاول مزرية باهل العلم فقال الامام الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى اكننت اليوم اشعر من لبيد

ومثل هذه الطائفة التي كانت تتخذ الشعر وسيلة للارتزاق لم يكن لها حرجية من دين ولا من عقل ولا من اخلاق ، فكانت ترمى القول جزافا وتسرف فيه اسرافا . حتي ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة في آخر القرن الاول قصده الشعراء بمدائحهم فحجبهم عنه ، فلما اخ عليه ابن ارقطة في ادخالهم انشد لكل منهم بيتين او ثلاثة فيها ما يؤخذ على قائله ، وأقسم ان لا يدخل عليه . حتي انتهى الي جرير فأنشد له قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

ثم قال لا بأس بهذا ، فليدخل . فلا يصح لنا ان نقف انفسنا لتصيد اقوال صدرت من هذه الطائفة فنؤوله تأويلا ، ونوجه توجيهها ، ونعتصره اعتصارا لنستخرج منه تاريخا للعصبية عند

العرب ، تلك العصبية التي لو صحت لتمزقت وحدة المسلمين شذر مذر ، ولم يبق لنا عنهم اليوم عين ولا أثر . وقد اثبتنا لك ان تلك الوحدة قد عجزت كل العوامل المحللة عن العبث بها ، وقد اثبتتها على وجوه شتى

ان شئت ان اعطيك مثالا محسوسا من ذلك فانظر الي اشـمار جرير والفرزدق والاضطراب ومهمتها جون ، تجد أن كل واحد منهم قد سب قبيلة خصمه وألصق بها اشد ما يتصوره العقل من الخمازي ، ولم يكن ذلك لسبب سياسي . فكذلك فعلت طبقات الشعراء الذين تقدموم ، وطبقات الشعراء الذين خلفوم

وهذا لا يمنع ان بعض الرؤساء يكون قد اوعز الي شاعر بهجاء قبيلة ، حملة على ذلك حقه على سيدها ، او غرض آخر في نفسه . ولكن هذا كان لا يغير رأي الناس في تلك القبيلة ولا يطمس معالم مجدها

وقد سجل القرآن على شعراء ذلك الجيل حكما لم تقم لهم بعده قائمة ، وهو قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ »

وقد عرف عرب الجاهلية قبل القرآن خفة وزن الشعراء ، وانهم ممن لا يصح التمويل على اقوالهم ، ولا الثقة بأرائهم ، فقالوا فيما قانوه من المذام التي وجهوها للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكى عنهم القرآن انه : « شاعر نتر بص به ريب المنون » اي قالوا ان محمدا شاعر لا يصح الركون الي اقواله لانها خيالات كخيالات الشعراء فلنصبر عليه غير حافلين به حتى يموت فنرتاح منه . وقالوا عن القرآن « اضغاث احلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر » أي قالوا ان ما آتي به محمد اوهام كلاحلام ، بل انه افترى هذه الاقوال من عنده ، بل هو شاعر يقول ما ليس بحق فلا يصح ان يؤبه لقوله

هذا كان مقام الشعر والشعراء في الجاهلية والاسلام ، فهل نأتي نحن في القرن العشرين فنجعل الشعر دليلا على امور جسام ، واثقالات عظام ، بينما لم يكن له ادنى تأثير خارج دائرة الخيال ؟ وليس يعني هذا ان الاسلام يستهجن الشعر ويراه من لغو الكلام ، بل هو

يريد ان تكون له اغراض سامية ، ومرام عالية فقد قال عليه الصلاة والسلام ان من
الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا . وكان يحب ان ينشد من جيد الشعر ، وقد نوه به فقال
ان اصدق بيت قالته العرب قول لييد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا محالة زائل
ولما انشده الشاعر قوله :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه ان يكدر
استحسنه جدا وقال له لا فض الله فاك . وحث عمر بن الخطاب الاتباء ،
وهو من أروع الناس ، على ان يُرووا اولادهم الشعر لتعذب السنتهم وتلطف
طباعهم

وقد انشا كثير من عباد المسلمين وزهادهم ومتصوفتهم قصائد ضافية الذبول ،
وجمعت لكثير منهم دواوين
الخلاصة ان الاسلام لا يذم من الشعر الا ما فيه هجوا او مجون او كذب او حث
على شرب الخمر ، أو الجرى مع الهوى .

اما مسألة سيادة بني امية على جميع العرب فليس فيها شيء اكثر من سيادة اسرة
مالكة في امة من الامم . وای هضيمة لحقت الامة الاسلامية من جراء أن كان
اميرها من بني امية ، ودينها قد محق لها الفوارق الجنسية والقبيلية ، ونص فيما يختص
بمسألة الامارة على ذلك نصا لا يقبل التأويل وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمع
وأطع ولو اعبد حبشي كان رأسه زبيبة » ؟ فان صح هذا الحديث عن النبي فهو الدين ،
وان لم يصح فقد رقد رسوخ امة في هذا الاصل العمراني بحيث تكذب على رسولها مثل
هذا المبدأ العظيم

ثم نهضت الاسرة العباسية لاسقاط الاسرة الاموية وانجحت في ذلك بعد
حرب ضروس ، فلم نر ولم ير احد في ذلك امرا مخالفا لسنن البشر ، فهو عام في جميع الامم
ولم يعزّه احد في تلك الامم لتفاقم امر العصبية ، ولا جعلوه سببا للتلفيقات الشعرية .
فذلك لان منطقة تأثير الشعر محدودة ، ولا هله دائرة اختصاص معروفة ، وللعوامل

التي تبعهم للمدح والذم مصدر لا يخفى على أحد ، ولذلك لا يعبأ العلم بهم ولا بأقوالهم
الا بقدر لا يعتمد . خذ مثلاً لذلك : لقد مدح ابو الطيب المتنبى كافور الاخشيدى
بقصائد هي عيون شعره ، لم يقل مثلها شاعر الملك ، ثم ذمه ذماً جرده فيه من كل
فضيلة انسانية ، فهل اثر ذلك في مقام كافور وحط من قيمته ، وهل عول علم التاريخ
عليه في استنتاج حكم من الاحكام ؟

فقس على هذا جميع الشعر المختلف وغير المختلف فهو لا يدل على شيء غير ما يعرف
عن اخلاق اهل في ذلك العهد . فمن الخطأ البين أن يخوض الدكتور طه حسين هذا
الخوض في تكوين الامة الاسلامية الاولى ، ويجوس خلال ادوارها وحوادثها هذا
الجوس المجهد ليثبت امراً قليل القيمة ، قاله قبله اهل القرن الاول والثاني ، وهو ان
الشعر الجاهلي مختلف منحول ، وانه قد حمل على شعراء لم يقولوه . هذه ثمرة تافهة لمجهود
هائل اوجب على الدكتور طه حسين ان يصدر احكاماً لا تتفق والحوادث ، ولا تلتئم وعلم
التاريخ ، مع ان هذا الاختلاق كله يمكن تعليقه بحب الرواة للاغراب وللأستكثار من الرواية

٣

الدين وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ماملخصه :

- (لم تكن العواطف والمنافع الدينية اقل من العواطف والمنافع السياسية اثر في)
- (تكلف الشعر وانتحاله وضافته الى الجاهليين . فكان هذا الانتحال في بعض)
- (اطواره يقصد به الى اثبات صحة النبوة وصدق النبي . وكان هذا النوع موجهاً الى)
- (عامة الناس . ومن هذا كل ما يروى من الشعر الجاهلي ممهداً للبعثة النبي . وفي سيرة)
- (ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع . وهناك)
- (شعر آخر اضيف الى الجاهليين من شعراء الجن)

(وكما ان القصاص والمتحليين قد اعتمدوا على الآيات التي ذكرت فيها الجن)
 (ليخترعوا ما اخترعوا من شعر الجن واخبارهم المتصلة بالدين فهم قد اعتمدوا على)
 (القرآن ايضا فيما رووا وانتحلوا من الاخبار والاشعار والاحاديث التي تضاف)
 (على الاخبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبي ويدعون الناس الي)
 (الايمان به)

(ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين ، وهو ما)
 (يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه ، فلا يمر ما اقتنع الناس بأن)
 (النبي يجب ان يكون صفوة بني هاشم ، وبني هاشم صفوة بني عبد مناف ، وبني)
 (عبد مناف صفوة بني قصي ، وقصي صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر)
 (صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية . واخذ القصاص)
 (يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبي خاصة ،)
 (والقصص عند العرب تستقيم الشعر ، ولا سيما اذا كانت العامة هي التي تراد بهذه)
 (القصص)

(وقد ارادت الظروف ان تكون الخلافة والملك في قريش ، وان يستقر الملك)
 (حيناً في بني امية ، وينتقل منهم الي بني هاشم ، ويشدد التنافس بين اولئك)
 (وهؤلاء ، ويتخذ اولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي .)
 (فاما في ايام بني امية فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لامية من مجد في الجاهلية)
 (واما في ايام العباسيين فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لبني هاشم من مجد في)
 (الجاهلية ، وتشدد المحسومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين وتكثر الروايات)
 (والاخبار والاشعار)

(وكانت البطون القرشية على اختلافها تنتحل الاخبار والاشعار وتغرى)
 (القصاص وغير القصاص بانتحالها)
 (ولا ضرب لك مثلاً واحداً يوضح ما قلت من ان بطون قريش كانت تحث على)
 (انتحال الشعر منافسة للأسرة المالكة اموية كانت او هاشمية . وهذه القصة التي)
 (سارويها تمس بني مخزوم من قريش)

(تحدث صاحب الاغاني باسناد له عن عبد العزيز بن ابي نهشل قال : قال لي)
 (ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ياخال هذه اربعة آلاف درهم وانسند)
 (هذه الابيات الاربعة وقل سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .)
 (فقلت اعوذ بالله ان افترى على رسول الله . ولكن اذا شئت ان اقول سمعت عائشة)
 (تنشدها فعلت . فابي وأبييت . ثم ارسل لي وقال قل ابياتا تمدح بها هشاما وبني امية)
 (واجعلها لابيك . فقلت :)

(ألا لله قوم و لدت اخت بني سهم)
 (هشام وابو عب د مناف مدره الخصم)

الخ الخ

(ثم جئته فقلت هذه لابي . فقال لا ، ولكن قل قالها ابن الزبير . قال ففى)
 (الآن منسوبة في كتب الناس الى ابن الزبيرى (شاعر قریش))
 (نحو آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وهو هذا الذى يختلفه القصاص)
 (لتفسير ما يجدونه في القرآن من اخبار الامم القديمة . فالرواة يضيفون اليهم شيئا)
 (كثيرا وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد في طبقات الشعراء في اثبات)
 (ان هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تبع وحمير موضوع منتحل وضعه ابن)
 (اسحاق ومن اليه من اصحاب القصص)

(ونحو آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر : وذلك حين ظهرت الحياة العلمية)
 (عند العرب بعد ان اتصلت الاسباب بينهم وبين الامم المغلوبة ، فارادوا هم او)
 (الموالي أو اولئك وهؤلاء ان يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة ألفاظه)
 (ومعانيه ، فخرصوا على ان يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر)
 (العرب يثبت ان هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل الى الشك في عريبتها . وقد)
 (عرفت رأينا في ذلك وهو اننا نعتقد انه اذا كان هناك نص عربي لا تقبل لفته)
 (شكاً وهو لذلك اوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن . فكان يجب ان نستشهد)
 (به على ما يسمونه الشعر الجاهلى بدل ان نستشهد بهذا الشعر على نصوص)
 (القرآن)

(هنا نوع جديد من تأثير الدين في انتحال الشعر وهو الخصومات بين العلماء في)
 (تفسير القرآن . ومن هنا كانوا حراسا على ان يظهروا دائما مظهر المنتصرين في)
 (خصوماتهم . وای شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول)
 (القرآن؟)

(هذا ولم نصل بعد الى اعظم هذه الفنون من الانتحال خطرا وابعدها اثرا)
 (وهو هذا النوع الذي ظهر عند ما استؤنف الجدل بين المسلمين واصحاب الملل)
 (الاخرى . وقد ذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من)
 (غرابة اذ اراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام اولية في بلاد العرب كانت قبل ان)
 (يبعث النبي ، وان خلاصة الدين الاسلامي هي خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله)
 (الى الانبياء من قبل . فالقرآن يحدثنا عن التوراة والانجيل ويذكر معها شيئا)
 (آخر هو صحف ابراهيم . ويذكر غير دين اليهود والنصارى ديننا آخر هو ملة ابراهيم ،)
 (هو هذه الحنيفية التي لم نستطع الى الآن ان تبين معناها الصحيح . وقد اخذ)
 (المسلمون يردون الاسلام في خلاصته الى دين ابراهيم الذي هو اقدم واثق من دين)
 (اليهود والنصارى)

(وشاعت في العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يحدد دين)
 (ابراهيم . ومن هنا اخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب في)
 (عصر من العصور ثم اعرضت عنه وانصرفت الى الاوثان . ولم يحتفظ بدين ابراهيم)
 (الا افراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الاسلام . فأحدث هؤلاء الناس قد)
 (وُضعت لهم وُحملت عليهم حملا بعد الاسلام لتثبيت ان الاسلام في بلاد العرب)
 (قدمة وسابقة الخ الخ)

رأينا في هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين : « لم تكن العواطف والمنافع الدينية اقل من العواطف »

السياسية اثرا في تكلف الشعر واتحاله واضافته الى الجاهليين فكان يقصد به الى اثبات النبوة وصدق النبي ، وكان هذا النوع وجها الى عامة الناس . ومن هذا كل ما يروى من الشعر الجاهلي ممهدا لبعثة النبي . وهناك شعر اضيف الى الجاهليين من شعراء اليمن »

ونحن نقول : اننا نوافق الدكتور طه حسين على انه قد اختلف شعر كثير من هذا النوع ولهذا الغرض ، ولكننا ننتقد عليه ايراد هذا الموضوع على هذا النحو فانه يستلزم القارىء غير الملم بتاريخ الدين الاسلامي ان الذي وضع هذه الاشعار هم قادة الدين للتأثير به على العامة ، او انها وضعت عن رضى ومبالاة منهم . والواقع ان الذى وضعها صنفان من الناس : (اولهما) اعداء الدين لافساده بادخال عنصر الغلو فيه ، والصاق الخرافات به . و (ثانيهما) جهلة المتدينين ظننا منهم ان الكذب فى هذا المعنى حلال لاشية فيه . وربما عدوه وسيلة للمثوبة الحسنة عند الله . وقد نبه قادة الدين على هذين الامرين وعدوهما من العبث بالدين ، والنكوب عن طريق المؤمنين

على ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى هذا الغلو في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكثرة ماورد فى الكتاب والسنة من النهي عنها . فقد صرح القرآن بان النبي لا يفترق عن سائر الناس الا بالوحي فقال تعالى : « قل انما انا بشر مثاكم يوحى اليّ انما اهلکم الله واحد » وقال تعالى : « وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم » وقال تعالى : « وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ، وجعلنا بعضهم لبعض فتنة ، أنصبرون ؟ وكان ربك بصيرا »

وقد نص القرآن فى آيات كثيرة على ان النبي لا حول له ولا حيلة ، وعلى انه عبد مربوب قد يرتكب خلاف الاولى فيلومه الله ويؤدبه ، وعلى انه انما ارسل لتبليغ الناس امر ربه لا للسيطرة عليهم ، والتحكم فى ضمايرهم . فقال تعالى « عفا الله عنك لما اذنت لهم » « ليس لك من الامر شيء » « لست عليهم بمسيطر » « وما انت عليهم بوكيل » « لست عليهم بجبار » « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » « افاأنت تتركه الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى

« من يشاء » « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » « إن أدري ما يفعل بي ولا بكم » إن هنا بمعنى ما النافية . « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم ايضاحا فقال : « انا فيما لم يوح اليّ كأحدكم » وقال لرجل جاءه وقد اصابته رعدة من هيئته : « هون عليك انا لست بملاك انما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد » . وقال لقوم جاءوه فقالوا انت سيدنا : « لا تقولوا سيدنا فان السيد الله »

وقد نبه عليه السلام على ان الاحداث الطبيعية لا تحدث لميلاد احد ولا لوفاته فقال : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت احد ولا لحياته فان رأيتم ذلك فاذكروا الله »

فكل ما يروى اذن من الارهاصات التي سبقت النبوة ، ومن الاشعار التي عزيت الي الجاهليين ، اكاذيب لا يصح الالتفاف اليها . ويكفي في اسقاطها انها ركيكة المباني ، سقيمة المعاني ، ظاهر عليها طابع الوضع ، تدل على ان مخلقها ليسوا من الشعر في شيء ، وانها تنافي اصول الاسلام

ويضاف الى هذا الباب كل ماورد على ألسنة القصاص معزوا الي الاحبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم . فكل ما روى عنهم احاديث خرافة تنافي طبيعة الدين الاسلامي وتدل بذاتها على ان مخلقها قصار العقول ليسوا حتي من المهارة في التلقيق على شيء

اما التنالي في الاشادة بذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم فهو ينسافي طبيعة الاسلام ايضا ، وينتافر وروحه الديموقراطية المحضة . فقد نص كتابه على ان الناس كلهم سواء بقوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » وقد شرح ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لقد اذهب الله عنكم رجز الجاهلية وتفاخرها بالاتباء كلكم من آدم وآدم من تراب » وقال عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي

على اعجمي الا بالتقوى او بعمل صالح »
 فاذا كان الكتاب قد حقق الفوارق الجنسية وعَفِّي على آثار العصبية الى هذا الحد،
 وصرح النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بأنه لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى او
 بعمل صالح، فمن الفضول ان يعنى رجل مسلم بتعظيم النبي من ناحية نسبه
 ومن الادلة المحسوسة على ان النبي لم يمتز على سواه من ناحية اهله امام العدل الالهي
 ما تقرر من ان عمه ابو طالب مات على غير الاسلام، وان الله انزل قرآنا في ذم عمه
 الآخر ابي لهب فقال تعالى : « تبت يدا ابي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب،
 سيصلى نارا ذات لهب »

يقول الدكتور طه حسين: « اشتد التنافس بين بنى امية و بنى هاشم واتخذ أولئك
 وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي . فاما في أيام بنى امية فيجتهد
 القصاص في اثبات ما كان لبنى امية من مجد في الجاهلية ، واما في أيام العباسيين
 فيجتهد القصاص في اثبات ما كان لبنى هاشم من مجد في الجاهلية، وتشتد
 الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين ، وتكثر الروايات والاخبار
 والاشعار »

ونحن نقول : اما اشتداد التنافس بين اسرتين احدهما تود الاستمرار في الملك
 والاخرى تعمل على اسقاطها لتحل محلها فامر طبيعي حدث في كل امة منيت
 باسرتين متناظرتين على الزعامة العامة ، واغراضهما الوضاعين والختلقين على الاشادة
 بذكرهما، والتنويه بفضلهما، امر طبيعي ايضا . ولكن كل هذا لم يخف على الائمة
 الناقدين في العصور الاولى وقد نهوا اليه في مؤلفاتهم ، فكلام الدكتور طه حسين
 موافق في هذه الناحية لرأى الاقدمين . ولكنه استشهد اولا على تنافس بطون
 قریش في حمل الناس على اختلاق الشعر على الجاهليين بقصة نقلها عن الاغاني باسناد
 له عن عبد العزيز بن ابي نهشل الذى ادعى ان ابا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن
 هشام قد اغراه ان يمدح جده هشاما وبنى امية وان يعزو ذلك لابييه، ثم حملة على ان
 يعزوه لابن الزبير . رأى شاعر قریش ففعل

فنعن نلاحظ على الدكتور في استشهاده بهذه القصة وامثالها امورا :

(اولها) جواز ان تكون القصة كلها مختلفة وهو لم يظهر الشك فيها

(ثانياها) اعتماد على اسناد صاحب الاغانى ، ولله الشكر بالاسانيد طرق لا بد من تحريها . وقد كذب الرواة على النبي صلى الله عليه وسلم فكيف لا يكذبون على الادباء والزعماء ؟ لاسيما وابو الفرج الاصبهاني مؤلف الاغانى كان شيعيا يلذه النيل من كرامة بنى امية ، والخط من قدرهم

(ثالثها) ثقته بما رواه عبد العزيز بن ابي نهشل عن نفسه مع انه اعترف بانه اقترح ان يكذب على عائشة وعلى ابيه باربعة آلاف درهم . ثم اقر بانه كذب متعمدا على ابن الزبيرى شاعر قريش . ورجل هذه حاله من الافك والبهتان ، والتهتك في الاختلاق ، لا يصح ان يؤخذ بقوله للاستشهاد به في كتاب ادبي يؤلف لابتاء القرن العشرين ، وينيج فيه منيج ديكارت

فكل الاولى بالدكتور طه حسين ان يستشهد بمحادثة محققة ليسوع له ان يصدر حكما في باب من ابواب الاختلاق القديم

وقال الدكتور طه حسين : « ونحو آخر من تاثير الدين في انتحال الشعر وهو هذا الذى يلجأ اليه القصاص لتفسير ما ورد في القرآن من اخبار الامم البائدة . فالرواة يضيفون اليهم شيئا كثيرا وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد في طبقات الشعراء في اثبات ان هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف الى تبع وحمير موضوع منتحل وضعه ابن اسحق ومن اليه من اصحاب القصص »

ونحن نقول ان هذا مصداق لما قلناه من ان جميع الاشعار والاخبار التي رويت عن الجاهليين من الشعراء والاخبار في تعظيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبه النقدة من العلماء على انها مختلفة قد حملت على اصحابها زورا وبهتانا ، وابن اسحق هذا من اقدم كتاب السيرة النبوية . وهنا لا نألك انفسنا من الاعجاب بالنقدة القدماء من المسلمين فانهم لم يعفوا من تقدم حتى الاشعار والاخبار المثبتة للدين ، لانهم يرون ان هذه التلفيقات اضر على الدين من الطعن فيه ، وان الرجل محاسب على كل شيء

ومسؤول عن دليله فيه

واما مقاله الدكتور طه حسين عن وضع الوضاعين للاشعار ونسبتها للجاهليين لا ثبات عربية الفاظ القرآن، واللاتصاف على الخصوص في فهم معاني القرآن ، فهذا كله صحيح ، ولكنه لم يجرؤ عليه الا اهل البهتان من المشتغلين بالقرآن وعلماء السوء الذين يودون الظهور على خصومهم بأى سلاح كان . وقد عرف ذلك النقدة الاقدمون ونبهوا اليه ، ولم يغفل هذه الملاحظة الاستاذ مصطفى صادق افندي الرافي في كتابه آداب العرب

وقال الدكتور طه حسين : « اعظم هذه الفنون من الانتحال خطرا وابعدها أثرا هو هذا النوع الذي ظهر عند ما استؤنف الجدال في الدين بين المسلمين واصحاب الملل الاخرى . وقد ذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة اذا اراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام اولية في بلاد العرب كانت قبل ان يبعث النبي ، وان خلاصة الدين الاسلامي هي خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله الى الانبياء من قبل . فالقرآن يحدثنا عن التوراة والانجيل ويذكر معهما شيئا آخر هو صحف ابراهيم . ويذكر غير دين اليهود والنصارى ديننا آخر هو ملة ابراهيم ، هو هذه الخفيفة التي لم نستطع الا ان نتبين معناها الصحيح . وقد أخذ المسلمون يردون الدين في خلاصته الى دين ابراهيم الذي هو اقدم واتق من دين اليهود والنصارى »

« وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يحدد دين ابراهيم ، ومن هنا اخذوا يعتقدون ان دين ابراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور . ثم أعرضت عنه وانصرفت الى الاوثان . ولم يحتفظ بدين ابراهيم الا افراد قليلون كانوا يتحدثون به قبل الاسلام . فأحدث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الاسلام لتثبت ان الاسلام في بلاد العرب قدمة وسابقة »

ونحن نقول ان الامر الذي يستغربه الدكتور طه حسين وهو أن للاسلام اولية كانت قبل ان يبعث النبي ، وانه خلاصة الدين الحق الذي اوحاه الله الى الانبياء من قبل ، هذا الامر قد قرره القرآن نفسه ، وَجَدْتُ فِي بَيْتِهِ فِي الْعُقُولِ ، ونشره في الشرق والغرب ، لا المجادلون من المسلمين الذين كانوا يجادلون اصحاب الملل الاخرى . وهذا الامر نفسه الذي يستغربه الدكتور طه حسين هو المبرر الوحيد لأن يتقدم الاسلام الى الامم ، وهي تموج في خضم زاهر من الديانات ، بعنوان انه دين عام لجميع العالمين ، وان الاتي به هو خاتم النبيين

وهذا الامر الذي يستغربه الدكتور طه حسين هو مصدر القوة المخارقة للعادة التي اوجد بها الاسلام لنفسه مكانا بين الاديان ، وَسَوَّغَتْ لَهُ ان يصف نفسه بأنه دين آخر الزمان ، واليك البيان :

جاء الاسلام والعالم غاص بالاديان ، حافل بالملل ، قد توزعت امم الكبرى اديان رسخت اصولها ، وشمخت صروحها ، وعزت قاداتها ، وتنوعت وجهاتها وغاياتها ، حتى لم يبق بينها متنافس لدين جديد ، وَلَا مُتَّبِعٌ وَلَا رَأْيٌ طَرِيفٌ . فقد كانت البرهمية والبوذية في الهند ، والبوذية والكونفسيوسية في الصين ، واليهودية مبعثرة في الاقطار ، والمسيحية في اوروبا ، والوثنية في افريقيا وهنا وهناك ، ولكل منها دولة وصول ، ومذاهب وتقاليد ، وبجانبها اديان اخري صغيرة لا تدخل تحت حصر ، وقد تنوعت في جميعها المذاهب ، وتعددت الفرق بحيث لم يبق شيء يمكن خطوره على البال عن الامور الدينية والروحية لم يخض فيه قادة هذه الاديان ، فهل كان موجب لحدوث دين جديد ؟ وهل يصادف هذا الدين لو ظهر مكانا من العقول ؟ وهل يجد مذهبا في الامور العلوية لم يأت به ماسبقه من الملل ؟ وهل يمكن ان يتخذ غرضا لم يخطر على بال كل هؤلاء القادة من المتكلمين والكهان ؟

كانت الاديان قبل الاسلام محتكرة في ايدي طوائف ممتازة من الشعوب : علوا اشخاصهم حق الوساطة بين الله وخلقه ، ونصبوا انفسهم قواما عليهم في شؤونهم الجسدية والروحية معا ، وحصروا في جماعتهم حق تقرير العقائد ، وفرض التقاليد والايماز الى الناس بما يجب ان يعمه لوه ، وما يجب ان يجتنبهوه ، مستسلمين

لارادتهم استسلام الطفل لمربيه ، لا حق لهم في اجالة نظر ، او تعَقِّل اثر ،
او تفهِّم خبر، مسوقين الى حيث يعلمون ولا يعلمون ، مؤاخذين بما يفهمون وما لا
يفهمون

فلما استحكمت حلقات هذا القهر ، واستعدت النفوس للخلاص من هذا الاسر ،
وُسمِّح للنفوس الرازحة تحت نير العبودية ، ان تتمتع بحريتها الفطرية ، وللمواهب
الراسقة في اصفاة الجبَرية ، ان تتمتع بحقوقها الطبيعية ، جاء الاسلام فأعلن
الناس كافة ان اصل الاديان كلها واحد ، وانما اختلفت في امورها التشريعية ، تبعاً
لحالة الجماعات من الناحية الاجتماعية ، وان هذا الاصل هو ان يقوم الانسان على
الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، اى على الحالة الطبيعية التي يتأدى الانسان اليها بما
رُكِّب فيه من ميول طبيعية ، وخصائص جسمية ، ومواهب عقلية ، فلا يحتاج في
تدينه لتلقين ملقن ، ولا تعليم معلم ، وان كل ما يُضاف الى هذه الحالة الفطرية من
التفصيلات عن ذات الله ، وعن الكون والكائنات ، والعوالم العلوية والسفلية ، مما
افترق الناس فيه شيعا ، وتحزبوا له احزابا ، وتنازعوا من اجله فسفكوادماءهم واخربوا
بلادهم ، فانما هو من وضع الزعماء والسادة الذين خولوا انفسهم حق الوصاية على
الامم ، واستغلوا جهلها الي ما لا حد له لمصالحه شهواتهم

واليك مرأى الايات التي وردت في القرآن في هذا الباب :

قرر القرآن بأن اصل الاديان الاسلام اى الاستسلام بمعنى الانقياد . وهو يعنى به
الحالة التي يكون عليها الانسان حين يعجز عن تصوير الله بصورة او تحديده بحد ،
او تخيل انه شئ من الاشياء المرئية او المشوْهة . ويظهر هذا التحديد لمعنى الاسلام
مما اورده في قصة ابراهيم وهو :

« وكذلك يُري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما
سَجَن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما أَفَلَ قال لا أحب الاقلين . فلما رأى
القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أَفَلَ قال انى لم يهديني ربي لا كُون من القوم الضالين .
فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما أَفَلَتْ قال يا قوم اني برىء مما
تشركون . اني وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض خنيْفا وما انا من

المشركين « سورة الانعام

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ، اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين . ووصي بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وانتم مسلمون » سورة الانعام

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الي كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » سورة آل عمران

فلا سلام بهذا المعنى هو اصل كل الاديان وقد صرح القرآن بهذا في غير آية فقال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب »

فاذا كان اساس الدين الاعتراف بالعجز عن تحديد الله بحد ، او تعيينه بصورة ، فمن اين يأتي التفرق في الدين ، والاختلاف في اصوله ؟ ولذلك قال لرسوله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء »

واذا كان الدين هو هذا فهو أسهل ما يكون كلفة على النفس فما على الانسان الا أن يعترف بالعجز عن تحديد الخالق ثم يأخذ في التقرب اليه بالصالحات وكفى . قال تعالى : « ومن احسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

ثم قرر القرآن بأن الاسلام هو الفطرة اي الخلق التي فطر الله النفوس عليها فان الانسان قد فُطِرَ على ان يعترف بالعجز عن تحديد مالا يمكنه تحديده ، لا على ان يتناوله بالتخييل والتصور فيوقع نفسه في الخطأ وهو عالم بوقوعه فيه ، قال تعالى : « فاقم وجهك للدين حنيفا (اي مائلا عن العقائد الزائفة) فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم معنى الفطرة بأنها الحالة التي يكون عليها ذهن الانسان خاليا من كل صورة ، نقياً من كل خيال ، على نحو ما عليه الطفل ساعة ميلاده فقال : « كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه »

ثم قرر القرآن بأن الله شرع هذا الدين لجميع الامم ، فلا سلام ليس بمجديد حتي يُترد في قبوله ، بل هو الاصل الاقدم الذي اُمرت بالاخذ به الامم كافة فانحرفوا عنه بغيا بينهم . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين اورثوا الكتاب افى شك منه مريب . فلذلك فادع وادعهم لقصي بينهم ، ولا تتبع اهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأُمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير » سورة الشورى

واذا كان الامر كذلك فيجب على الانسان ان يؤمن بجميع الانبياء وما جاؤا به ، لا يفرق بين رسول ورسول ، لأنهم جميعا جاؤا بأصل واحد ودعوا الي دين عام . وقد أمر الله الآخذين بالاسلام ان يقولوا : « قولوا آمنا بالله وما أنزل اليه وما أنزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما هم في شقاق ، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون »

فلا سلام والحالة كما ترى كما صرح بوحدة النوع البشرى ودعا الامم كافة لمحق ما بينها من الفوارق الاجتماعية ، كذلك دعاها الي الاخذ بدينها العام الذي ينحصر في كلمتين الاسلام لله والعمل الصالح قال تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصاري ، تلك امانيتهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن . فله اجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

نقول بعد هذا البيان: اى غرابة يراها الدكتور طه حسين في هذا الموضوع وهو اجمل ماحمله دين من الاديان الي العالم، بل اجمل ماحمله دين من الاديان من شبه الملحددين المعاصرين . ألم يقولوا اذا كان الله واحدا ، والانسان هو الانسان في كل زمان ، فلم تخالفت الاديان ، وتباينت تعاليمها في كل مكان ؟ ولو اطلعوا نوجدوا ان الاسلام قد حل هذه الشبهة حلا ليس وراءه مذهب لمشتبه ، بل الاسلام نفسه هو الحل العملي لهذه الشبهة

اما استغراب الدكتور طه حسين من زعم من زعم ان لهذا الدين سابقة وقُدْمة في بلاد العرب، فلا حق له فيه ، لان التوراة نصت على ان ابراهيم زار البلاد العربية ووافقهم العرب على هذا، وقالوا انه بنى فيها بيتا للعبادة سموه الكعبة ، وقد عالجنا هذه المسألة فيما مر من الفصول، فرأينا انه وان لم يثبت ذلك على الاسلوب التاريخي الذي يتطلب الآثار المحسوسة، الا انه كذلك لا يوجد في التاريخ ما ينفيه، وقلنا ان المرجحات كلها متظاهرة على زيارته لبلاد العرب . فهل من غرابة بعد هذا ان يأخذ بدينه رجال من العرب الذين اتصلوا به في ذلك العهد ؟ وهل كان دين ابراهيم فوق متناول للعقول حتى 'يستغرب ان يأخذ به رجال من مخالطيه لهم قلوب يفقهون بها، ولهم آذان يسمعون بها، ولهم ذوق يفرقون به بين الخبيث والطيب ؟ وهل كان دين ابراهيم الا التوحيد الذي دلت الآثار على انه وُجد من اقدم اليهود في مصر والهند والصين وسواها وأخذ به رجال في تلك الازمان البعيدة ؟ فأى غرابة في ان توجد منه آثار في بلاد العرب بقيت من عهد ابراهيم، ولكن الوثنية تغلبت عليه كما هوشأنا في جميع البلدان ؟

القصص وانتحال الشعر

عقد الدكتور طه حسين فصلاً تحت هذا العنوان قال فيه :

(القصص في نفسه ليس من السياسة ولا من الدين ، وإنما هو فن من فنون)
 (الادب العربي توسط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية وكان مرآة للون من ألوان)
 (الحياة النفسية عند المسلمين . وأزهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي)
 (الراقية . وأزهر أيام بني أمية وصدر من أيام بني العباس ، حتي إذا كثرت التدوين)
 (وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس ان يلهوا بالقراءة دون ان يتكلفوا الانتقال)
 (الي مجالس القصص ضعف امر هذا الفن ، واخذ يفقد صفته الادبية الراقية حتي)
 (ابتذل وانصرف عنه الناس)

(كان قصص المسلمين يتحدثون الي الناس في مساجد الانصار فيذكرون لهم)
 (قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات . ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث)
 (ورواية السيرة والمغازي والفتوح الي حيث يستطيع الخيال ان يذهب بهم لا الي)
 (حيث يلزمهم العلم والصدق ان يقفوا . وكان الناس كلهم بهؤلاء القصص)
 (مشغوفين بما يلقون اليهم من حديث . وما أسرع ما فطن الخلفاء والامراء لقيمة)
 (هذه الاداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها)
 (واستغلوها استغلالاً شديداً ، واصبح القصص اداة سياسية فكانت الاحزاب)
 (السياسية تصطنع القصص ينشرون لها الدعوة كما كانت تصطنع الشعراء)
 (يناضلون عنها)

(وقد استمد القصص قوته من مصادر مختلفة اهمها اربعة) :

(الاول) مصدر عربي هو القرآن وما كان يتصل به من الاحاديث والروايات)
 (وما كانت تتحدث به العرب في الامصار من اخبارها واساطيرها ، وما كانت)

(تروى من شعر ، وما كان يتحدث به الرواة من سيرة النبي والخلفاء وغزواتهم)
(وفتوحهم)

(الثاني) مصدر يهودى نصراني . وهو ما كان يأخذه القصاص عن اهل
(الكتاب من اخبار الانبياء والاحبار والرهبان وما يتصل بذلك)

(الثالث) مصدر فارسى وهو هذا الذى كان يستقيه القصاص في العراق خاصة
(من الفرس مما يتصل باخبارهم واساطيرهم واخبار الهند واساطيرها)

(ثم المصدر الرابع مصدر مختلط هو هذا الذى يمثل نفسية العامة غير العربية
(من اهل العراق والجزيرة والشام من الانباط والسريان ومن اليهم من هؤلاء)
(الاخلاط)

(وانت تعلم ان القصص العربي لا قيمة له اذا لم يزنه الشعر من حين الى حين .)
(واذن فقد كان القصاص ايام بنى امية وبنى العباس في حاجة الى مقادير لا حدها)
(من الشعر يزينون به قصصهم ، وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق
(ما كانوا يشتهون)

(فقد كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الاحاديث والاخبار)
(ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها حتى اذا استقام لهم مقدار)
(من تليق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم واذاعوه)
(بين الناس)

(وقد فطن بعض العلماء الى ما في هذا الشعر من تكلف وسخف واسفاف ، والى
(ان بعض هذا الشعر يستحيل ان يكون قد صدر عن الذين ينسب اليهم . ومن
(هؤلاء العلماء محمد بن سلام . وكان ابن هشام يروي في السيرة ما كان يروي به ابن
(اسحق حتى اذا فرغ من رواية القصيدة قال : واكثر اهل العلم بالشعر او بعض
(اهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة او ينكرها لمن تضاف اليه . ولكن لم يكن
(صناع الشعر جميعا ضعافا ولا محققين ، بل كان منهم من يجيد الشعر ويحسن انتحاله
(وتكلفه ويحتمد في اخفاء صنيعته)

(وهناك لون آخر من الوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون اليه)

(ويروون فيه الاكاذيب والاعاجيب، وهو اخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة)
(الي ابد مما الف الناس . وقد رويت حول هؤلاء المعمرين اخبار واشعار)
(قبلها العلماء والفقهاء في القرن الثالث للهجرة كأبي حاتم السجستاني وابن سلام)
(نفسه)

(والرواة اشد انحدا حين يتصل الامر بالبادية اتصالا شديدا . وذلك في)
(هذه الاخبار التي يسمونها ايام العرب او ايام الناس فقبلوا ما كان يروى منها على)
(انه جد من الامر، ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوا منه تاريخ العرب .)
(وليست هذه الاخبار الا المظهر القصصي للحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد)
(ان استقروا في الامصار فزادوا فيه وزينوه بالشعر كما ذكر اليونان قديمهم فانشأوا)
(فيه الايالة والادسا وغيرها من الشعر القصصي)

(فكل ما يروى عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرحهم والعماليق وعن تبعهم)
(وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب البائدة)
(موضوع لا اصل له . وكل ما يروى من ايام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل)
(بذلك من الشعر اكثره موضوع من غير شك . وكل ما يروى من الاخبار والاشعار)
(التي تتصل بما كان بين العرب والامم الاجنبية من العلاقات قبل الاسلام كملاقاتهم)
(بالفرس واليهود والحبشة خليق ان يكون موضوعا . وكثرته المطلقة موضوعة من)
(غير شك)

راينا في هذا الكلام

ان ما ذكره الدكتور طه حسين عن اخبار المعمرين وايام العرب وما يروى عن
عاد وثمود وطسم وجديس وجرحهم والعماليق وعن تبعهم وحمير وشعراء اليمن واخبار الكهان
وما يتصل بسيل العرم من أن كل ما ورد منه او اكثره موضوع ومبالغ فيه، صحيح نوافقه
عليه . وكل من اتفق له مطالعة ما جاء من هذا كله في كتب الادب، وكان له دربة في

النقد، وذوق في تقدير الحوادث يدرك معنا لا أول وهلة انه مخلق مكذوب او بعيد عن حقيقته بما حُمِّل من التزييفات والتلفيقات ، وما احيط به من المبالغات والتزويرات

وكيف لا يكون كذلك والعرب انما التفتوا لتدوين شيء من تاريخهم الجاهلي بعد مضي قرن من دخولهم في الاسلام ولم يكن العرب الجاهليون على شيء من العلم بالخط فيكتبوا حوادثهم ، فلم يبق منها الا ما كان يتحدث به الناس ويزيدون فيه او ينقصون على ما يتفق لهم . وهو الذي تلقفه الرواة من افواههم وزادوا عليه ما زادوه من بضاعتهم استكثارا لمصوبهم ، واستجلابا للمنافع ممن كانوا يحرصون على الاخذ عنهم

ولم يقف الاختلاق والتلفيق في نظرنا عند حد اخبار العصر الجاهلي ، فان اكثر ما نقل لنا عن الخلفاء وعن ملوهم وقصصهم ، وعن مجالسهم مع الشعراء والندمان ، مخلق او مبالغ فيه مبالغة منكرة ، يدرك ذلك من اوتي خاصة النقد بأدني تأمل . ولذلك أواخذ الدكتور طه حسين على اعتماده في تعيين اسباب الاختلاق في الشعر الجاهلي على الحكايات التي وردت في كتب المحاضرات ، فانه لو اتقن تسرية منهج ديكارت عليها لرعى بأكثرها عرض الحائط ، ولما استنتج منها ما استنتجه من الصورة المشوهة للحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين في عهدهم الاول ، عهد الوحدة المحكمة التي ملكوها ناصية العالم في سنين معدودة

وما كان مذهب ديكارت مشكاة يستهدى به الباحثون في ظلمات المسائل الا لانه جعل اساسه الشك ، وهذه الحكايات التي وردت في كتب المحاضرات اولى بهذا الشك من كل نوع آخر من انواع الرواية عن الاقدمين ، فانها اُلُفَّت للتفكه والتسلي ، وناهيك بما يؤلف لهذا الغرض قبل الف ومئتي سنة بل وما يؤلف منه ايضا في القرن العشرين عصر التثبت والتحقيق

اما ما ذكره الدكتور طه حسين عن القصص والقصص ، فكلام ثمين من ناحية تحديد القصص وتصوير نفسية القصص . وكل ما نلاحظه عليه ان القارئ لما ذكره عنهم يخيل اليه انهم من الطوائف ذات الاتصال الوثيق برجال الدين ، وانهم

مالاً وهم على التأخير على عقول العامة من هذا الطريق . والحقيقة ان بنية العالم الاسلامي لفظت القصاص من يوم ان ظهوروا بعد خلافة عمر بن الخطاب ، وانهم قد طوروا كما تطارد المبتدعة في كل الاجيال الاسلامية . ذلك لأن هؤلاء القصاص كانوا يخلطون بين الاسلاميات وبين ما يجمعونه من هنا وهناك من اخبار الامم واخبار الافراد ، وبنية العالم الاسلامي قامت على التثبت والتحصيص ، حتي ان المسلمين تولوا الاحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتفليسة والتحقيق فأقروا نحو عشر ما كان متداولاً مشهوراً منها ، واعتبروا نحو تسعة اعشارها مصنوعاً لا يؤخذ به . فبنية هذا شأنها من عدم الاخذ بغير الحق وان كان ديناً ، لا تحتل القصص بوجه من الوجوه . فكان يجب على الدكتور طه حسين ، دفعا لتوهم رضاء الدين او اهله عنهم ، ان يصور لقرائه مكانهم من الاسلام وذويه من عهد ظهورهم الاول الي اليوم . واذا كان هذا قد فأت الدكتور طه حسين فنحن ننبه اليه وننقل ما ورد عنه في كتب ائمة المسلمين :

قال العلامة ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري المتوفي سنة (٧٣٧) في المجلد الاول والثاني من كتابه (المدخل) :

« جاء ابن عمر رضي الله عنه الى مجلسه من المسجد فوجد قاصا يقص ، فوجه الى صاحب الشرطة (اي مدير البوليس) أن أخرجه من المسجد فأخرجه » وقال الامام ابو طالب المكي : كانوا يرون القصص بدعة ، ويقولون لم يقص في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن ابي بكر ، ولا في زمن عمر ، حتي ظهرت الفتنة ، فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص

« وروى الزهري عن سالم عن ابن عمر انه خرج من المسجد وقال ما أخرجني الا القاص ، ولولاه ما خرجت

« وقال ضمرة قلت للثوري : نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال ولوا البدع ظهوركم

« ودخل امير المؤمنين علي بن ابي طالب مسجد البصرة فوجد به قصاصا فوقف على كل منهم وسمع ما يقول ، ثم طردهم من المسجد جميعا الا الحسن البصري فانه ابقاه ،

والحسن البصري سيد التابعين بالاجماع وكان اعلم اهل زمانه واورعهم
 « وقال تميم الداري الهجائي لعمر بن الخطاب دعني ادعو الله واقص واذكر
 الناس . فقال عمر لا . فأعاد عليه . فقال انت تريد ان تقول انا تميم الداري فاعرفوني
 » وقال ابو ادريس لئن ارى في ناحية المسجد نارا تاجج أحب الى من ان
 ارى في ناحيته قاصا يقص

« وروى الطرطوشي قال ابو معمر رأيت يسارا ابا الحكم يستاك على باب المسجد
 وقاصا يقص في المسجد . فقلت له يا ابا الحكم الناس ينظرون اليك . فقال : الذي انا فيه
 خير مما هم فيه . انا في سنة وهم في بدعة

« قال ولما دخل سليمان بن مهران الاعمش البصرة فنظر الي قاص يقص في
 المسجد . فقال حدثنا الاعمش عن ابي اسحق عن ابي وائل . قال فتوسط الاعمش
 الحلقة وجعل ينتف شعر ابطيه . فقال له القاص يا شيخ ألا تستحي ، نحن في علم وانت
 تفعل مثل هذا ؟ فقال له الاعمش : الذي انا فيه خير من الذي انت فيه . قال كيف ؟
 قال لا ابي في سنة وانت في بدعة ، انا الاعمش وما حدثتك مما تقول شيئا . فلما سمع
 الناس ذكر الاعمش انفضوا عن القاص واجتمعوا حوله ، وقالوا حدثنا
 يا ابا محمد »

هذه قيمة القصاص وقيمة ما كانوا يطرفون الناس به من ثرو شعر فاذا كان قد
 اعتمد عليهم بعض المغفلين من الزعماء والقادة في نشر دعوة او بث فرية ، فانما هم قد
 اعتمدوا على غير معتمد ، واستندوا الى أوهي سند

الشعو بيته وانتحال الشعر

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان :

(ان هؤلاء الشعوبية قد انتحلوا اخبارا واشعارا كثيرة و اضافوها الي الجاهليين)
 (والاسلاميين . وقد اضطروا خصومهم الي الانتحال والاسراف فيه . واصل هذه)
 (الفرقة انما هو هذا الحمد الذي اضممه الفرس المغلوبون للعرب الفالبيين . وقد)
 (اخذت هذه الخصومة مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب ، وحدثت آثارا مختلفة)
 (بعيدة في حياة المسلمين السياسية والادبية)

(لم يكبد ينتصف القرن الاول للهجرة حتي كان فريق من سبي الفرس قد)
 (استعرب و اتقن العربية واستوطن الافطار العربية ، واخذ يكون له فيها نسل)
 (وذرية . واخذ هذا الشباب الفارسي الناشئ يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر)
 (العربي وتجاوز هذا الي مشاركة العرب في اغراضهم الشعرية السياسية . فكان)
 (منهم شعراء يتعصبون للاحزاب العربية السياسية . ولا يكاد واحد منهم يظهر)
 (تأييده لحزب حتي يفرح به ذلك الحزب ويجزل الصلوات له . كذلك كان يفعل)
 (بنو امية و بنو هاشم و آل الزبير . فأباحت لهم الخصومة بين الاحزاب العربية)
 (ان يتدخلوا في السياسة العربية ، وان يهجو اشراف قريش وقراة النبي)

(لم يكن هؤلاء الموالي مخلصين للعرب حقا ، انما كانوا يستغلون هذه الخصومة)
 (السياسية ليعيشوا و يضحوا حياة السادة الاحرار ثم ليسفوا مافي صدورهم من غيل)
 (ضد العرب)

(وكانت نتيجة استئصار الاحزاب بهم ان استباح هؤلاء الموالي لانفسهم هجو)
 (العرب اولا ثم ذكر قديمهم والافتخار به ثانيا)

(وقد هجا ابو نواس العرب و قريشا فيقال ان الرشيد اطال حبسه لذلك .)
 (وانشد اسماعيل بن يسار بين يدي هشام بن عبد الملك فخره بالفرس فغضب عليه وأمر)
 (بالقاءه في بركة كانت بين يديه ولم يخرج منها الا وقد اشرف على الموت)

(وهؤلاء الموالي قد أنطقوا العرب بكثير من النثر والشعر اللذين فيهما مدح)
 (للفرس وتقرب منهم . وزعموا ان الاعشى زار كسرى ومدحه واخذ من جوائزه .)
 (و اضافوا الي عدى بن زيد و انيط بن يعمر وغيرهما من ابادو العباد كثير من الشعر)
 (فيه الاشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم . وأنطقوا شاعرا من شعراء الطائف)

(بآيات وهي تضاف لابي الصامت بن ربيعة يمدح فيها الفرس . على هذا النحو انتحال)
 (الموالي الشعر وال اخبار و اضافوها للعرب ذكر الماثثر الفرس وما كان لهم من مجد)
 (وساطان في الجاهلية . فكان العرب مضطرين الى ان يجيبوا بلون من الانتحال يشبهه)
 (هذا اللون فيه تغليب للعرب على الفرس)

(ومن هنا مواقف هذه الوفود التي تتحدث امام كسرى بمحامد العرب وعزتها ،)
 (ومن هنا هذه المواقف التي تضاف الى ملوك الحيرة والتي تظهر هؤلاء الملوك احيانا)
 (عصاة مناهضين للملك الاعظم . ثم من هنا هذه الايام التي كانت للعرب على الفرس)
 (والتي تحدث النبي عن بعضها وهو يوم ذي قار)

(فالشعوبية في مظهرها السياسي الاول قد حملت الفرس على انتحال الاشعار)
 (وال اخبار وأكرهت العرب على ان يلقوا هذا الانتحال بمثله)

(على ان هذه الشعوبية لم تلبث ان استحوذت بعد سقوط الامويين وقيام)
 (سلطان الفرس على يد العباسيين الى خلاف له صورة علمية ادبية . وكان هذا)
 (النحو من الشعوبية اخصب من النوع السابق وابلغ في حمل العرب والفرس على)
 (الانتحال والاسراف فيه)

(ولعلك تلاحظ ان الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالي ، وكانوا)
 (يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس ايضا ، وكانت غايتهم قد استحوذت من)
 (اثبات سابقة الفرس في الملك الى ترويح هذا السلطان الذي اكتسبوه ايام بني)
 (العباس واقامة الادلة على ان الامر قد رد الى اهلهم ، وان العرب الذين حيل بينهم)
 (وبين السيادة الفعلية لم يكونوا اهلا لتلك السيادة)

(فاما ابو عبيدة الذي يرجع العرب اليه فيما يروون من لغة وادب كان من اشد)
 (الناس بغضا للعرب وكان وضع كتابا اسمه (مثالب العرب) . واما غيره من علماء)
 (الموالي فقد كانوا يمتدحون في ازراء العرب الى غير حد ، يناوونهم في حروبهم وشعرهم)
 (وخطاباتهم ودينهم ايضا ، فلبست الزندقة الامظها من مظاهر الشعوبية ، وليس)
 (تفضيل النار على الطين ، وابليل على آدم ، الا مظهرا من مظاهر الشعوبية الفارسية)
 (التي كانت تفضل المجوسية على الاسلام)

(والذى يعنينا من هذا كله ان نلاحظ ان الجاحظ وامثاله من الذين كانوا)
 (يعنون بالرد على الشعوبية مهما يكن علمهم لم يستطيعوا ان يعصموا انفسهم من هذا)
 (الانتحال الذى كانوا يضطرون اليه ليسكتوا خصومهم من الشعوبية . وكانت)
 (الشعوبية تنتحل من الشعر مافيه عيب للعرب وغض منهم، وكان خصوم الشعوبية)
 (ينتحلون من الشعر مافيه ذود عن العرب ورفع لا قدرهم)
 (ونوع آخر من الانتحال دعت اليه الشعوبية ذلك ان الخصومة بين العرب)
 (والعجم دعت العرب وانصارهم ان يزعموا ان الادب العربي القديم لا يخلو اولا)
 (يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم الحديثة، فان عرض شيء من هذه العلوم)
 (الاجنبية فلا بد من ان يثبتوا ان العرب قد عرفوه أو ألموا به او كادوا يعرفونه)
 (ويلمون به، وهم مضطرون الى ذلك ليثبتوا فضلهم على هذه الامم المغلوبة،)
 (واضطرارهم كان يشتد بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي وبمقدار ما ترفع هذه)
 (الامم المغلوبة رؤسها)

راينا فى هذا الكلام

يستخلص مما كتبه الدكتور طه حسين فى الشعوبية ان الفرس والعرب كانوا
 من التهاقد والتضامن، حتى بعد ان جمع بينهم الاسلام، بحيث بات كل فريق منهم
 يترص بالفريق الآخر الدوائر، وأن هذه الخصومة احدثت أثرا بعيدة المدى فى
 حياة المسلمين السياسية والادبية . فكان شعراؤهم يتعصبون للاحزاب السياسية لاعن
 اخلاص وحسن نية، بل لجر المغانم، وكسب الدراهم . وقد تذرعوا بذلك الى ثلب
 اشرف قریش وقرابة النبي صلى الله عليه وسلم

وقد قوّلوا العرب الجاهليين ما لم يقولوه من الشعر فى مدحهم والاشادة بذكورهم .
 واضطروا العرب لان ينحوا نحوهم فى وضع الشعر المناقض لمزاعمهم . واختلق العرب
 من جراء ذلك حكايات الوفود التي قيل انها اوفدت الى كسرى تذكر محامد العرب

ومناقبتهم ، ووقائع لم تحدث زعموا انهم انتصروا فيها على العجم ، وشفوا صدورهم من
الاثنان فيهم

ثم استحوالت الخصومة بين الامتين بعد سقوط الدولة الاموية الى خلاف علمي
حمل الفريقين على الاغراق في انتحال الشعر والاخبار الكاذبة . وبما ان اكثر العلماء
الاسلاميين كانوا من الفرس ، ووزراء الدولة من الفرس ، فقد اخذوا يقيمون الادلة
على ان الامر قد عاد الى اهلهم ، وان العرب لا يستحقون تلك السيادة التي كانوا
حصلوها ثم زالت منهم . وكان هؤلاء العلماء يعضون في ازدراء العرب الى غير حد
حتى في دينهم . فان الزندقة وتفضيل الجوسية على الاسلام كانت اذذاك اثر من
آثارهم

ذكر الدكتور طه حسين كل هذا ولم يستثن طائفة ولا جيلا ، فلا يمالك القارىء
نفسه من الازدراء بالفريقين ، بالفرس لخبثهم وخيانتهم والحادم ، وبالعرب لخبثهم
وغباوتهم واستخذائهم . فان سأل سائل كيف يعقل ان امة وصل الدخيل من جناتها
الى النخاع تستطيع ان تؤسس في عهد الدولة الاموية لنفسها ملكا لم ينبغ لامة من
الامم قبلها ، ثم توجد لنفسها في عصر العباسيين الذي تلاه مدنية لم تشرق الشمس
على اكمل منها الى عهدها ، تنتهي اليها فيها الخلافة العلمية والعملية والفنية في
الارض ؟

لوسأل سائل عن هذا لم يجد احد جوابا شافيا ولو كان اعدى اعداء الاسلام ،
اللهم الا ساقطا من القول ، وآفنا من الرأي ، وُهرء من المزاعم ، ومتي أغنى مثل
هذا في طمس الواقع المحسوس ؟

ان الدكتور طه حسين في بحثه عن مصادر الشعر المخلوق المنسوب للجاهليين ،
وفي تحريه عن علل هذا الاختلاق ، اضطر ان يعول على كتب المحاضرات كالاغانى
والعقد الفريد والبيان والتبيين وغيرها ، ولا ندرى كيف قاته ان هذه الكتب ادبية
فكاهية قاصرة على البحث في اطوار فن واحد يكثر فيه الخلط والخطب . وكان
يغلب على اهلهم ، وهم ادباء المصور الخالية ، المجانة والاباحة والجري وراء الخيال ،
وتصيد الرزق بالمدح والهجاء ، والتقرب الى الرؤساء بكل وسيلة من الجد والهزل .

حتى كان منهم من هجأ أمه وأباه وأمرأته وهجأ نفسه أيضا . فلا مذهب ديكرت ، ولا اى أسلوب فلسفى فى الارض ، يسمح لواحد من شيعة فى القرن العشرين ان يصدر على أمة كان لها اكبر الآثار فى العالم مثل هذه الاحكام المنافية للطبيعة الاشياء ، اعتمادا على مثل هذه المصادر التى لو سيطر عليها نقد جدى لنفى تسعة اعشار ما فيها لعدم موافقتها للمألوف ، وشرطا من العشر الباقي لتقص سنده التاريخي

نحن لانكر ان نفرا من الشعراء الذين اصولهم فارسية ، ونفرا آخرين من أبناء جلدتهم الذين لم يتأدبوا بأدب الاسلام فى مسألة الجنسية ، قد لعبت بعقولهم الميول الوراثية ، فلجأوا الى احياء العصبية ، فى دائرتهم المحلية . كما لانكر ان رجالا من العرب الذين لاحظ لهم من الاسلام الا الالتحاق باهله ، لم يقفوا مع نص الدين فى امارة الفوارق الاجتماعية ، قام الفريقان باحياء سنة الجاهلية ، من التفاخر بالآباء ، والتنازع بالالقاب والاسماء ، وارتكبوا فى تسكهم فى هذا السبيل جريمة الاختلاق على الأقدمين . ولكننا نرى ان هذا من الامور الطبيعية حتى فى الامة الواحدة التى يجرى فى عروقها دم واحد ، وتعيش كلها فى بيئة واحدة ، وفى القرن العشرين نفسه . فهل يجهل احد ما أوجده العرف من الفوارق بين الاغنياء والفقراء ، وبين ذوى البيوت والصما اميك ، وبين البيض والسود ؟ ثم أليس كتاب الدكتور طه حسين مشحونا بأخبار عصبية القبائل العربية ، ذات القرابة القريبة ، وما ابتنى على تلك العصبية قبل الاسلام من حروب ساحقة ، وحزازات ماحقة ، فهل يستغرب بعد ذلك ان يقوم بين زعانف من امتين مختلفتين ، ماقام مثله ويقوم الى اليوم بين أبناء الامة الواحدة ؟

ولكن ابن الدكتور طه حسين من هذا المثل الأعلى الذى اوجده الاسلام من ادماج الامم بعضها فى بعض ، وسل ما بينها من السيئات الموروثة منذ اجيال ، وتأليفه منها دولة قامت لأول مرة فى تاريخ البشر على المبادئ الاعلى الجنسية ؟ ان من شاء ان يرى المثل المحسوس من هذا الامر المدهش ، الذى عجز عنه الاولون والاخرون ، فلينظر الى الامة الاسلامية فى القرون الثلاثة الاولى من حياتها ليرى ان

العربي القح كان يأخذ لغته وادبه ودينه وتصوفه وسياسته وعلمه عن ناس لا يسألهم عن انسابهم وأجناسهم ، ولا يبالي بألوانهم ولا صورهم ، حتى اتفق ان كانت جهرتهم من اجناس اجنبية ، وقد ادى اليهم من الاحترام والتبجيل ما كان يؤديه لبني جلدته الذين كانوا في مثل رتبتهم . فكانت حال هذه الامة في هذا الامر من اغرب الاحوال ، تدل على مبلغ ما أفاده الاسلام للامة العربية ، ذات العصبية الحادة ، من الادب الاجتماعي العالي الذي قصرت عن مثله الفلاسفة في كل أديارها الي يومنا هذا

كانت الامصار والاقطار التي تعتبر مراکز للعلم والدين ، يُشعان منها على ما حولها من البلدان في عصر بني امية ، مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان . فكان في كل عاصمة من هذه العواصم ، ومدينة من هذه الاقطار إمام يقلده اهلها في الدين ، ويرجعون اليه في الفتوى . أفلا تعجب ان ذكرت لك أن كل هؤلاء الائمة الذين اخذ المسلمون عنهم الدين والعلم كانوا من الموالي الذين يقول عنهم الدكتور طه حسين انهم كانوا يكرهون العرب ، ويضمرون لهم الخصومة ، الا واحدا هو ابراهيم النخعي الذي كان امام اهل الكوفة ، فانه كان عربيا خالص العروبة . اما من عداه فكانوا فرسا او ديلميا او تركا او من أجناس اخرى ؟ فقد كان عطاء بن ابي رباح اماما في مكة ، وطاوس في اليمن ، ومكحول في الشام ، ويزيد بن ابي حبيب في مصر ، وميمون في الجزيرة ، والضحاك بن مزاعم في خراسان ، والحسن البصري في البصرة ، وكلهم من الموالي

ذكر السيحاوي في شرح الفية الحديث للقرافي ان هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي قال للزهرى : « من يسود اهل مكة ؟ قال عطاء . قال بم سادهم ؟ قال الزهرى سادهم بالديانة والرواية . قال هشام نعم ، من كان ذا ديانة حققت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهرى امامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ؟ فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمي له رجلا كان هشام يسأله هل هو عربي ام مولي ؟ فكان الزهرى يقول مولى . الي ان أتى على ذكر النخعي فقال انه عربي . فقال هشام الا فرجت عني ،

والله ليسودن الموالي العرب ويخطب لهم على المنابر

وهذا الحسن البصرى الذى يعتبر امام أئمة هذه الامة، والمرجع الأعلى للدين والعلم والفتيا كان فارسيا من الموالي . وقد بلغ من الشرف والسؤدد أن شدد النكير على الحجاج بن يوسف الثقفى واغلظ له فى القول

وكان رأس التابعين والمقدم عليهم سعيد بن جبير وهو اسود اللون، وكان قد ولاه الحجاج اقامة الصلاة فى الكوفة ، والكوفة اذ ذاك مُعَشَّش العرب ، وقبة الاسلام

وكان سليمان الاعمش الامام المشهور عبدا اعجميا ، وقد كان من العزة والمنعة بحيث يزدرى بأمر هشام بن عبد الملك . فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمته ان هذا الخليفة الاموي طلب اليه ان يكتب له مناقب عثمان ومساوىء على . فأخذ كتاب هشام وألقمه عنزا كانت عنده وقال للرسول قل لأمير المؤمنين هذا جواب كتابك

وكان ابو حنيفة صاحب المذهب فارسيا وقد لقبه العرب انفسهم بالامام الاعظم، واخذوا عنه الدين غير متخرجين ، ولا متأثرين . وجمهرة العلماء الذين حفظوا القرآن والا حادىث كانوا من الفرس وغيرهم ، وهم البخارى ومسلم صاحبى الصحيحين ، والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والسجستانى وغيرهم اصحاب بقية كتب السنة الصحيحة ، لم تحل جنسيتهم فى نظر العرب دون اعتبارهم أئمة علم الحديث ، وحسبانهم كتبهم المراجع الوثيقة له

وقد كان وهب بن منبه من اقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسى الاصل ، وكان نافع صاحب القراءة المشهورة ديلىما

اما اقدم الفقهاء الذين اخذ عنهم الأئمة مذاهبهم غير من ذكرنا فالحسن بن ابى الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، ومجاهد ، وسليمان بن يسار فى مكة ، وزيد بن سلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن ابى نجيح فى المدينة ، وربيعه الراى ، وابن ابى الزناد فى قباء ، وكل هؤلاء كانوا من الموالي

ولو أردت سرد اسماء علماء الموالي الذين يعتبرون السلف الصالح لهذه الامة

لكتبت صحفا كثيرة ، فلا كتف بهذا القدر لشهرة هذا الامر شهرة مستفيضة في جميع مراكز العالم الاسلامي
فهؤلاء هم أئمة الدين الاسلامي اخذوه عن اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ونشروه بين الناس ، فشجنت الكتب بأرائهم ومذاهبهم واحترمها المسلمون من اول عهدهم الي اليوم
فان كان صحيحا ما قاله الدكتور طه حسين عن الموالي وجب ان يكون المسلمون منذ الف وثلاث مئة سنة الى اليوم من الغفلة والغباوة والبلادة في الحضيض الأسفل ، اذ اخذوا دينهم عن قوم من الطراز الذي وصفه الدكتور طه حسين باضمار الخصومة للمسلمين الاولين وبكراهة الاسلام وتفضيل الجوسية عليه لا يقول بهذا عاقل.

٦

الرواية وانتحال الشعر

ختم الدكتور طه حسين كلامه عن الاسباب المختلفة التي حملت على انتحال الشعر و اضافته الى الجاهليين بفصل تحت عنوان الرواية وانتحال الشعر لم نجد فيه شيئا يستحق النقد وقد مر كلامنا على الرواية في اول هذا الكتاب ، وان فيه لبلاغا



18

قائمة قبلية عليه قومية قديمة

عنه كما ينبغي ان يكون له في نفسه

فهرست

مقدمة الكتاب	١
نقد كتاب الشعر الجاهلي (الكتاب الاول) تمهيد	٣
رأينا في هذا الكلام	٥
منهج البحث	٩
رأينا في هذا الكلام	١٠
مرآة الجاهلية يجب ان يلتبس في القرآن لافي الشعر الجاهلي	١٦ ✓
رأينا في هذا الكلام (تمهيد - تاريخ العرب في الجاهلية)	١٩
مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين في العرب	٣١
هل كان للعرب الجاهلية حياة دينية قوية وحياة عقلية قوية ؟	٣٣
مبلغ اتصال العرب بالامم الاجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم في السياسة العامة	٤٦
الشعر الجاهلي واللغة	٥١ ✓
رأينا في هذا الكلام	٥٤
الشعر الجاهلي واللهجات	٧٢ ✓
رأينا في هذا الكلام	٧٢
الكتاب الثاني (اسباب انتحال الشعر)	٧٤ ✓
رأينا في هذا الكلام	٧٥
السياسة وانتحال الشعر	٧٧
رأينا في هذا الكلام	٨٤

الدين وانتحال الشعر	١٢٥
رأينا في هذا الكلام	١٢٨
القصص وانتحال الشعر	١٣٩
رأينا في هذا الكلام	١٤١
الشعرية وانتحال الشعر	١٤٤
رأينا في هذا الكلام	١٤٧
الرواة وانتحال الشعر	١٥٢



٥٢١ معشاة العتاة نيلها

٨٢١ وكلاهما الله رية ليل

٥٢١ معشاة العتاة من صفتها

١٣١ وكلاهما الله رية ليل

٣٣١ معشاة العتاة أوتى معشاة

٧٣١ وكلاهما الله رية ليل

٢٥١ معشاة العتاة قالوا

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة



عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

عشاة العتاة

المصنف المفسر

ثمان مئة وست عشرة صفحة في القطع الكبير

كان الناس يقرأون القرآن فتمر بهم الفاظ لا يفهمونها ، وتعبيرات تتعالي عن مداركهم ، فيهلون الرجوع فيها الى التفسير لاقتضاء ذلك منهم وقتاً لا يملكونه ، ولأن المفسرين عنوا عناية خاصة بالعلوم الآلية فيعسر علي مرید النظر العجلی ان يتناول مراده من قريب . شعرنا نحن بهذه الحاجة الماسة فألفنا تفسيراً وطبعناه علي هامش مصحف استكتبناه أحد خطاطي مصر ثم أعدنا طبعه مرة ثانية ونفدت الطبعتان واليوم طبعناه للمرة الثالثة ولكن في شكل يبلغ الغاية في الاتقان فعمدنا الى أجمل مصحف في العالم وأخذنا صورته بالزنگراف وأحطنا كل صفحة منه بتفسيرها في حيزين حيز للالفاظ وحيز للمعاني . ففي الحيز الاول استوعبنا الفاظ الصفحة وشرحناها شرحاً لغوياً مضبوطاً بالشكل وتوسعنا فيه علي قدر مايسمح به المقام ، لنعطي مطالع الذكر الحكيم مجموعة من الكلم العربية تفيده في ترقية محصوله اللغوي ترقية بعيدة المدى ، لأن القرآن الكريم استوعب أفصح الفاظ اللغة العربية وقد آتينا في الحيز الثاني علي معاني الآيات الشريفة في عبارات عصرية ، خالية من المصطلحات الفنية ، ومفرغة في قالب خاص يُظهر لقارئه كل ما فيها من الالفاظ المحذوفة مما يقتضيه الایجاز المعجز للكتاب الالهي ، ولا يمكن الاهتداء اليه الا بموقف من أقطاب اللسان العربي

وقد راعينا مع كل هذا ان نأتي علي أسباب نزول الآيات حتي لا يفوت القارئ شيئاً مما تصبو نفسه الي الوقوف عليه مع الایجاز الموفی بالحاجة
ثمان النسخة غير المجلدة منه ٦٠ قرشاً وثمان المجلدة تجليداً متقناً محلي بالنقوش
الذهبية ٧٠ قرشاً

كتاب معجبات الفنون الكتاب العشر

ثمانية آلاف وأربع مئة وست عشرة صفحة في عشرة مجلدات

مامن انسان الا وتعرض له مسائل في كل ضرب من ضروب المباحث يجب ان يرى فيها خلاصة سائغة يجدها ساعة طلبها بدون كلفه ولا عناء ، يستغنى بقراءتها عن سؤال العارفين وعن تصفح مطولات الكتب ساعات طويلة . فدائرة معارف القرن العشرين تقوم بتوفية هذه الحاجة فتجيب على كل سؤال يوجه اليها بأوفي بيان . فمقتنيها يكون كمن لديه مجمع علمي مسخر للإجابة على كل سؤال يلقيه اليه في اى فرع من فروع العلم القديمة والحديثة

فمن اراد معرفة كلمة لغوية ، أو قاعدة نحوية ، أو مسألة فقهية أو شرعية ، أو ترجمة رجل مشهور ، أو تاريخ امة وجغرافيتها ، أو تفصيلات مرض من الامراض وعلاجه ، أو اسعاف اصابة فجائية ، أو تسكين ألم مباغت ، أو تركيب علاج ، أو خواص عشب ، أو قيمة غذا ، أو حياة نبات أو حيوان ، أو خلاصة في العلوم الحديثة ، أو رأى في الفلسفة ، أو أى فذلكة احصائية ، أو اى شئ يحيش بالصدور ويدخل في نطاق العلم البشري وجد ذلك ساعة طلبه بعبارة وافية واضحة لأن كل المسائل العلمية فيه مرتبة على حروف الهجاء

فاقتناء مثل هذا الكتاب يغني الانسان عن ادخار مكتبة كاملة ويجعله يشارك كل ذى علم في علمه ويرفعه الى المستوى الذى يتوق اليه في معترك الحياة . وعصرنا عصر العلم لا يمكن المعيشة فيه بدونه . ومن من الناس يستطيع ان يختار لنفسه الكتب الضرورية له ؟ وابن الوقت الذى يمكنه من البحث في الوف الصفحات ليستخرج منها بعد اجهاد النفس ساعة أو ساعتين ماهو في حاجة اليه في الدقيقة التى هو فيها كاسعاف مصاب بمرض فجائي مثلاً ؟

فدائرة المعارف تغني عن هذا كله وتسعف كل طالب بجواب مسئلته من أوثق المصادر ساعة طلبه . ولاجل سد هذه الحاجة الماسة انشئت دوائر المعارف في كل بلد متمدن ، واقتناها حتي العامة فأصبح بها الذي حرم في صغره من العلوم العالية يشارك المتخرج من أكبر جامعة في فهم ما يريد الامام به
وقد اعتمدت وزارة المعارف دائرة معارف القرن العشرين فاشتركت فيها جميع مدارسها

وقد اتممنا طبعه للمرة الثانية منقحة مهندبة وهي موجودة تامة مجلدة وغير مجلدة
ثمها ٥٤٠ قرشاً بدون تجليد و ٦٤٠ مجلدة تجليداً متقناً جداً

تسهيل اقتنائها للراغبين

تسهيلاً لاقتناء هذه الدائرة وتأسيساً بمؤلفي الغرب رأينا ان ينبقى باب الاشتراك فيها مفتوحاً فترسل للطلاب مجلداً منها كل شهر بـ ٥٤ قرشاً بدون تجليد وبـ ٦٤ قرشاً بتجليد محولة هذه القيمة علي البوستة
ومن شاء أكثر من مجلد ارسلنا له ماأراد . الطلبات ترسل الى مؤلفها :
محمد فريد وجدي (بوستة السيدة) مصر

على اطلال المذهب المادي

هو كتاب أتينا فيه على جميع اصول الماديين وفلسفتهم وناقشناهم فيها مناقشة علمية وأوردنا آراء عشرات من العلماء والفلاسفة في هذا الباب فجاء اجمع كتاب في اللغة العربية لما تمس اليه حاجة الباحثين في كنه المذهب لمادي وفلسفته ونهاية ما عنده من الشبه والاستشكالات

ونظراً لكثرة الكلام اليوم في المادية والماديين نرى ان كل غيور علي الحقيقة

يجب عليه ان يتحصن ضد هذه التعاليم الضارة بقراءة هذا المؤلف الذى وضعناه خصيصاً لهذا الغرض . وهو يتألف من ثلاثة أجزاء :

(الجزء الأول) في المذهب المادي ومناقشة الماديين في أصولهم وآراء رؤساء الفلسفة وأقطاب العلوم فيها

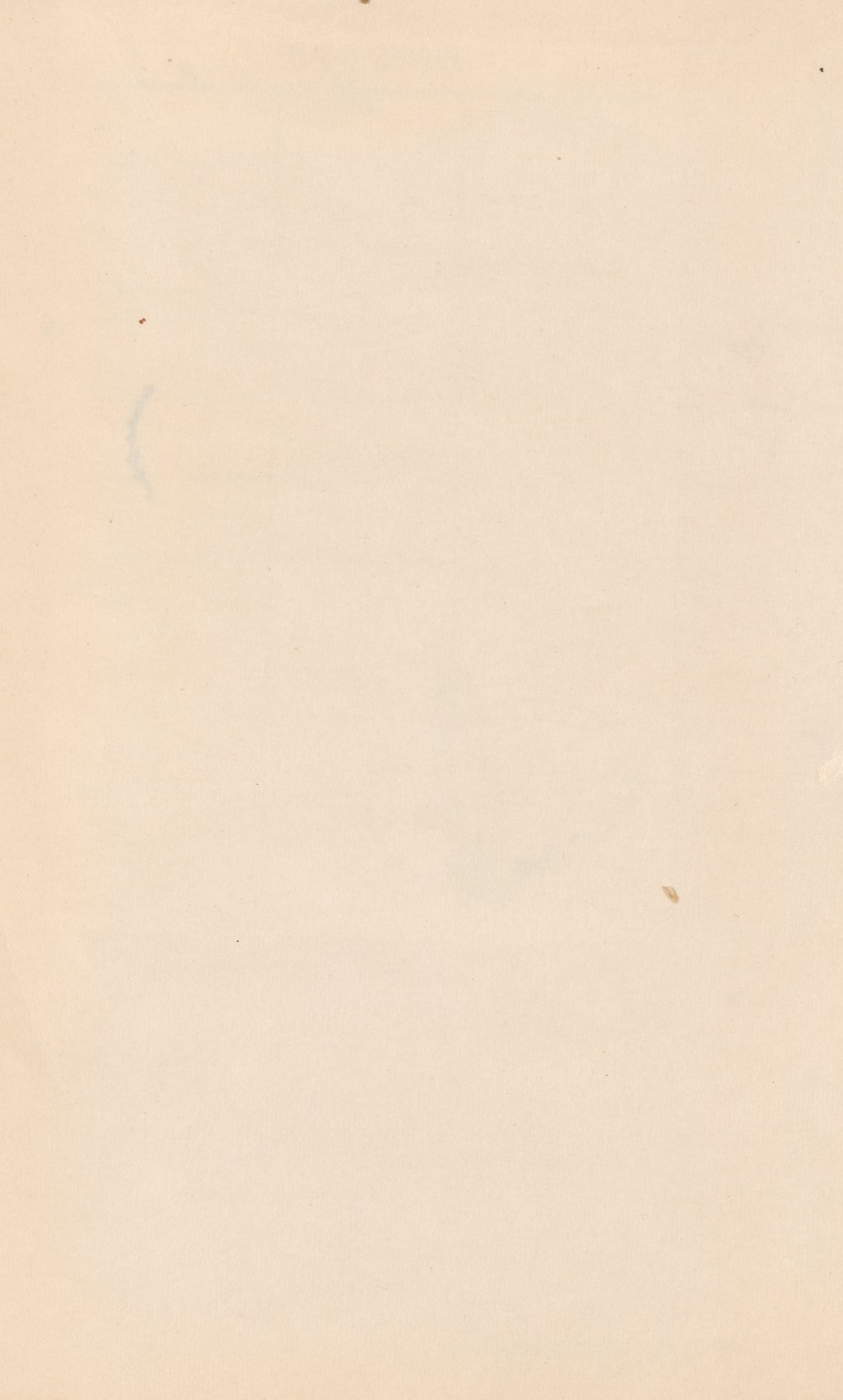
(الجزء الثانى) هو مجموعة مقالات كنا نشرناها في المقتطف تحت عنوان : اثبات الروح بالمباحث النفسية) أتينا فيها على المباحث التي يجريها العلماء اليوم في أوروبا لاثبات روح الانسان من طريق التجربة وفيه كلام مستفيض على ما يسمونه استحضر الارواح وما وقف عليه علماء الطبيعة من ذلك على الاسلوب العلمي التجريبي

(الجزء الثالث) هو ترجمة بحث ممتع للفيلسوف الفرنسي جان فينو صاحب المجلة العالمية اسمه (فتح جديد - الروح خالدة) التي فيه على آراء العلماء ومباحثهم التجريبية في خلود الروح ، واستطرد الى مباحث فلسفية اخرى تتعلق بذلك ثمن الثلاثة الأجزاء خمسة وعشرون قرشاً ونصف

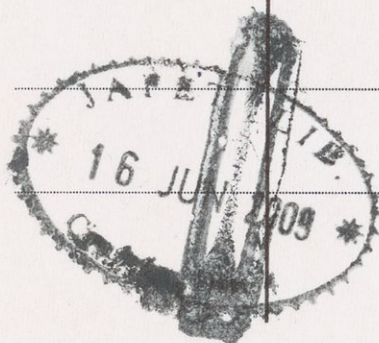
دستور التغذية

هو كتاب أتينا فيه على الاغذية وقيمتها المغذية وما يصلح للامزجة المختلفة ومقاديرها بالضبط كما تعطيه المقررات الكيماوية الحديثة ، وفيه ترجمة فصول ضافية عن ائمة الطب في علاقة الأغذية بالصحة والمرض وفي احسن اسلوب لحفظ الصحة من طريق التغذية الصالحة الخ الخ

ثمنه سبعة قروش ونصف



DATE DUE



وجدى ، محمد فريد

نقد كتاب الشعر الجاهلي ...

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01035006

